التبيان لأمثال القرآن

تأليف

أبي محمد عبد الحميد بن يحيى بن زيد
الحجوري الزعكري

وفقه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله القائل: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[العنكبوت:٤٣]، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك الديان، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ومن تبعه بإحسان، المبين للناس ما نُزل إليهم بأوضح بيان وأجلى برهان.

أما بعد:

فقد أنزل الله عز وجل القرآن للتعقل والتفكر، وجعل فيه من الدلائل والحجج ما به تُقام الحجة على العباد، كما قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٦٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ أُومِنَ، أَوْ آمَنَ، عَلَيْهِ البَشَر، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنِّي أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ»، متفق عليه.

ومن هذه الأساليب أساليب الأمثال التي يزداد بها إيمان المؤمنين وإعراض المعرضين، كما قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾[البقرة:٢٦]، فأجابهم بقوله: ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦]، أي: **من الكفار**

والمنافقين، ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦]، أي: من المؤمنين الموحدين، ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة:٢٦]، المعرضين عن دين رب العالمين .

وهي من المتشابه الذي لا يعقله ويعلم المراد منه إلا الراسخون في العلم كما قال الله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧]

قال شيخ الإسلام رحمه الله في "تفسير آي القرآن" (٥/ ١٩٣) في قوله: ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾[العنكبوت:٤٣]: "دل على أن العالمين يعقلونها وإن كان غيرهم لا يعقلها.

والأمثال : هي المتشابه عند كثير من السلف وهي إلى التشابه أقرب من غيرها، وعقل معناها: هو معرفة تأويلها الذي يعرفه الراسخون في العلم دون غيرهم" اهـ.

فمن هذا الباب تعين بيانها والعناية بشرحها وتفسيرها عَلَّ الله عز وجل أن ينفع بها من شاء من عباده.

وقد عزمت في عام ثلاثة وأربعين وأربعمائة وألف بإذن الله عز وجل كما هي عادتي في رمضان أن أجعل كثيرًا من دروسه متعلقة بالقرآن فهو شهره على دراسة وتدريس أمثال القرآن وما يدخل تحتها من الأحكام حيث حثَّ الله عز وجل

ورغب على فهمها وتعقلها وتدبرها كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [الإسراء:٤١].

فأسأل الله التوفيق والسداد.

أبو محمد عبد الحميد بن يحيى الزعكري

في الواحد والعشرين من شهر رجب الحرام

لعام ثلاثة وأربعين وأربعمئة وألف

مكتبة الصحابة بالغيضة

حرسها الله وسائر بلاد المسلمين.

فصل الأول: التمهيد

تعريف الأمثال

وقال الزَّرْكَشِيُّ في البرهان (١/ ٤٨٧): وَالْأَمْثَالُ مَقَادِيرُ الْأَفْعَالِ وَالْمُتَمَثِّلُ كَالصَّانِعِ الَّذِي يُقَدِّرُ صناعته كَالْخَيَّاطِ يُقَدِّرُ الثَّوْبَ عَلَى قَامَةِ الْمَخِيطِ ثُمَّ يفريه ثم يقطع وكل شيء به قَالَبٌ وَمِقْدَارٌ وَقَالَبُ الْكَلَامِ وَمِقْدَارُهُ الْأَمْثَالُ.

وَقَالَ الْخُفَاجِيُّ: سُمِّيَ مَثَلًا لِأَنَّهُ مَاثِلٌ بِخَاطِرِ الْإِنْسَانِ أَبَدًا أَيْ شَاخِصٌ فَيَتَأَسَّى بِهِ وَيَتَّعِظُ وَيَخْشَى وَيَرْجُو وَالشَّاخِصُ الْمُنْتَصِبُ وَقَدْ جَاءَ بِمَعْنَى الصِّفَةِ كقوله تعالى: ﴿ وَلله الْمَثَلُ الأَعْلَى ﴾[النحل:٦٠]، أَيِ: الصِّفَةُ الْعُلْيَا وَهُوَ قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَقَوْلُهُ: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾[محمد:١٥]، أَيْ صِفَتُهَا. اهـ

أنواع الأمثال:

١ – المثل الموجز السائر:

وهو إما شعبي لا تَعَلُّم فيه، ولا تكلف ولا تَقَيُّد بقواعد النحو، وإما كتابي صادر عن ذوي الثقافة كالشعراء والخطباء كقوله :(كَالْمُسْتَجِيرِ مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ)

٢ – المَثَل القياسي:

هو سرد وصفي أو قصصي أو صُورة بيانية لتوضيح فكرة ما عن طريق التشبيه والتمثيل، ويُسميه البلاغيون التَمثيل المُركب، أو اعتبارُ أحدِهِما بالآخر لغرض التأديب والتهذيب أو التوضيح والتصوير.

٣– المثل الخرافي:

وهي حكاية ذاتُ مغزى على لسان غير الإنسان لغرض تعليمي أو فكاهي وما أشبه ذلك كقوله: (أُكَلْتُ يَوْمَ أُكِلَ الثَّورُ الأَبْيَضُ).

أنواع أمثال القرآن الكريم

أما القرآن فتأتي على ضربين:

الأول– الأمثال ظاهرة:

هي عبارة عن تشبيه شيء بآخر أو تمثيل صورة غائبة بصورة مشاهدة محسوسة، ليسهُل تصورها و إدراكُها.

فمن ذلك قوله تعالى عن المنافقين: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ ﴾[البقرة:١٧].

وقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[العنكبوت:٤١].

الثاني- الأمثال الكامنة.

قال السيوطي رحمه الله في الإتقان في علوم القرآن (٤/ ٤٨):

وَأَمَّا الْكَامِنَةُ فَقَالَ الْمَاوَرْدِيُّ: سَمِعْتُ أَبَا إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ بْنَ مُضَارِبِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: سَأَلْتُ الْحُسَيْنَ بْنَ الْفَضْلِ فقلت: إِنَّكَ تُخْرِجُ أَمْثَالَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ مِنَ الْقُرْآنِ فَهَلْ تَجِدُ فِي كِتَابِ اللهِ" **خَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا**"؟ قَالَ: نَعَمْ فِي أَرْبَعَةِ مَوَاضِعَ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾.

قُلْتُ: فَهَلْ تَجِدُ فِي كِتَابِ اللهِ "**مَنْ جَهِلَ شَيْئًا عَادَاهُ** " قَالَ نَعَمْ فِي مَوْضِعَيْنِ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾، ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾.

قُلْتُ: فَهَلْ تَجِدُ فِي كِتَابِ اللهِ "احْذَرْ شَرَّ مَنْ أَحْسَنْتَ إِلَيْهِ"؟ قَالَ: نَعَمْ: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

قُلْتُ: فَهَلْ تَجِدُ فِي كِتَابِ اللهِ "لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْعَيَانِ"؟ قَالَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

قُلْتُ: فَهَلْ تَجِدُ فِي "الْحَرَكَاتِ الْبَرَكَاتُ"؟ قَالَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً﴾.

قُلْتُ: فَهَلْ تَجِدُ "كَمَا تَدِينُ تُدَانُ"؟ قَالَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾.

قُلْتُ: فَهَلْ تَجِدُ فِيهِ قَوْلَهُمْ: "حِينَ تَقْلِي ندري": قَالَ: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾.

قُلْتُ: فَهَلْ تَجِدُ فِيهِ "لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ"؟ قَالَ: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾.

قُلْتُ: فَهَلْ تَجِدُ فِيهِ " مَنْ أَعَانَ ظَالِمًا سُلِّطَ عَلَيْهِ"؟ قَالَ: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

قُلْتُ: فَهَلْ تَجِدُ فِيهِ قَوْلَهُمْ: "لَا تَلِدُ الْحَيَّةُ إِلَّا حَيَّةً"؟ قال: قوله تَعَالَى: ﴿وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾.

قُلْتُ: فَهَلْ تَجِدُ فِيهِ: "لِلْحِيطَانِ آذَانٌ"؟ قَالَ: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾.

قُلْتُ: فَهَلْ تَجِدُ فِيهِ: "الْجَاهِلُ مَرْزُوقٌ وَالْعَالِمُ مَحْرُومٌ" قَالَ: ﴿مَنْ كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً﴾.

قُلْتُ: فَهَلْ تَجِدُ فِيهِ "الْحَلَالُ لَا يَأْتِيكَ إِلَّا قُوتًا وَالْحَرَامُ لَا يَأْتِيكَ إِلَّا جُزَافًا"؟ قَالَ: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾]. اهـ

أهمية الأَمثَال القُرآنية

قال السيوطي رحمه الله في الاتقان (٤/ ٤٤):

قَال لماوَرْدِيُّ: مِنْ أَعْظَمِ عِلْمِ الْقُرْآنِ عِلْمُ أَمْثَالِهِ وَالنَّاسُ فِي غَفْلَةٍ عَنْهُ لِاشْتِغَالِهِمْ بِالْأَمْثَالِ وَإِغْفَالِهِمُ الْمُمَثَّلَاتِ وَالْمُثُلُ بِلَا مُمَثَّلٍ كَالْفَرَسِ بِلَا لِجَامٍ وَالنَّاقَةِ بِلَا زِمَامٍ.

وَقَالَ غَيْرُهُ: قَدْ عَدَّهُ الشَّافِعِيُّ مِمَّا يَجِبُ عَلَى الْمُجْتَهِدِ مَعْرِفَتُهُ مِنْ عُلُومِ الْقُرْآنِ فَقَالَ: ثُمَّ مَعْرِفَةُ مَا ضُرِبَ فِيهِ مِنَ الْأَمْثَالِ الدَّوَالِّ عَلَى طَاعَتِهِ الْمُبَيِّنَةِ لِاجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ.

وَقَالَ الشَّيْخُ عِزُّ الدِّينِ: إِنَّمَا ضَرَبَ اللهُ الْأَمْثَالَ فِي الْقُرْآنِ تَذْكِيرًا وَوَعْظًا فَمَا اشْتَمَلَ منها على تفاوت في ثَوَابٍ أَوْ عَلَى إِحْبَاطِ عَمَلٍ أَوْ عَلَى مَدْحٍ أَوْ ذَمٍّ أَوْ نَحْوِهِ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى الْأَحْكَامِ.

وَقَالَ غَيْرُهُ: ضَرْبُ الْأَمْثَالِ فِي الْقُرْآنِ يُسْتَفَادُ مِنْهُ أُمُورٌ كَثِيرَةٌ: التَّذْكِيرُ وَالْوَعْظُ وَالْحَثُّ وَالزَّجْرُ وَالِاعْتِبَارُ وَالتَّقْرِيرُ وَتَقْرِيبُ الْمُرَادِ لِلْعَقْلِ وَتَصْوِيرُهُ بِصُورَةِ الْمَحْسُوسِ فَإِنَّ الْأَمْثَالَ تُصَوِّرُ الْمَعَانِيَ بِصُورَةِ الْأَشْخَاصِ لِأَنَّهَا أَثْبَتُ فِي الْأَذْهَانِ لِاسْتِعَانَةِ الذِّهْنِ فِيهَا بِالْحَوَاسِّ وَمِنْ ثَمَّ كَانَ الْغَرَضُ مِنَ الْمَثَلِ تَشْبِيهُ الْخَفِيِّ بِالْجَلِيِّ والغائب بالشاهد وَتَأْتِي أَمْثَالُ الْقُرْآنِ مُشْتَمِلَةً عَلَى بَيَانِ تَفَاوُتِ الْأَجْرِ وَعَلَى الْمَدْحِ وَالذَّمِّ وَعَلَى الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَعَلَى تَفْخِيمِ الْأَمْرِ أَوْ تَحْقِيرِهِ وَعَلَى تَحْقِيقِ أَمْرٍ أَوْ إِبْطَالِهِ قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ**﴾ فامتن علينا بذلك لما تضمنته من الفوائد.

وقال الزَّرْكَشِيُّ فِي (الْبُرْهَانِ): وَمِنْ حَكَمَتِهِ تَعْلِيمُ الْبَيَانِ وَهُوَ مِنْ خَصَائِصِ هذه الشريعة.

وقال الزَّمَخْشَرِيُّ: التَّمْثِيلُ إِنَّمَا يُصَارُ إِلَيْهِ لِكَشْفِ الْمَعَانِي وَإِدْنَاءِ الْمُتَوَهَّمِ مِنَ الشاهد فإن كان المتمثل لَهُ عَظِيمًا كَانَ الْمُتَمَثَّلُ بِهِ مِثْلَهُ وَإِنْ كَانَ حَقِيرًا كَانَ المتمثل بِهِ كَذَلِكَ

وَقَالَ الْأَصْبَهَانِيُّ: لِضَرْبِ الْعَرَبِ الْأَمْثَالَ وَاسْتِحْضَارِ الْعُلَمَاءِ النَّظَائِرَ شَأْنٌ لَيْسَ بِالْخَفِيِّ فِي إِبْرَازِ خَفِيَّاتِ الدَّقَائِقِ وَرَفْعِ الْأَسْتَارِ عَنِ الْحَقَائِقِ تُرِيكَ الْمُتَخَيَّلَ فِي صُورَةِ الْمُتَحَقَّقِ وَالْمُتَوَهَّمِ فِي مَعْرِضِ الْمُتَيَقَّنِ وَالْغَائِبِ كَأَنَّهُ مُشَاهَدٌ وَفِي ضَرْبِ الْأَمْثَالِ تَبْكِيتٌ لِلْخَصْمِ الشَّدِيدِ الْخُصُومَةِ وَقَمْعٌ لِسَوْرَةِ الْجَامِحِ الْأَبِيِّ فَإِنَّهُ يُؤَثِّرُ فِي الْقُلُوبِ مَا لَا يؤثر في وَصْفُ الشَّيْءِ فِي نَفْسِهِ وَلِذَلِكَ أَكْثَرَ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ وفي

سَائِرِ كُتُبِهِ الْأَمْثَالَ وَمِنْ سُوَرِ الْإِنْجِيلِ سُورَةٌ تُسَمَّى سُورَةَ الْأَمْثَالِ وَفَشَتْ فِي كَلَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَلَامِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْحُكَمَاءِ). اهـ

وقد صنف فيه من المتقدمين الحسن بْنُ الْفَضْلِ وَغَيْرُهُ وَحَقِيقَتُهُ إِخْرَاجُ الْأَغْمَضِ إِلَى الْأَظْهَرِ . اهـ

وَالْمَثَلُ أَعْوَنُ شَيْءٍ عَلَى الْبَيَانِ، فَإِنْ قُلْتَ: لِمَاذَا كَانَ الْمَثَلُ عَوْنًا عَلَى الْبَيَانِ وَحَاصِلُهُ قِيَاسُ مَعْنًى بِشَيْءٍ مَنْ عَرَفَ ذَلِكَ الْمَقِيسَ فَحَقُّهُ الِاسْتِغْنَاءُ عَنْ شَبِيهِهِ وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ لَمْ يُجْدِثِ التَّشْبِيهُ عنده معرفة؟

وَالجوَابُ: أَنَّ الْحِكَمَ وَالْأَمْثَالَ تُصَوِّرُ الْمَعَانِيَ تَصَوُّرَ الْأَشْخَاصِ فَإِنَّ الْأَشْخَاصَ وَالْأَعْيَانَ أَثْبَتُ فِي الْأَذْهَانِ لِاسْتِعَانَةِ الذِّهْنِ فِيهَا بِالْحَوَاسِّ بِخِلَافِ الْمَعَانِي الْمَعْقُولَةِ فَإِنَّهَا مُجَرَّدَةٌ عَنِ الْحِسِّ وَلِذَلِكَ دَقَّتْ وَلَا يَنْتَظِمُ مَقْصُودُ التَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ الْمَثَلُ الْمَضْرُوبُ مُجَرَّبًا مُسَلَّمًا عِنْدَ السَّامِعِ.

وَفِي ضرب الأمثال من تقرير المقصود مالا يَخْفَى إِذِ الْغَرَضُ مِنَ الْمَثَلِ تَشْبِيهُ الْخَفِيِّ بِالْجَلِيِّ، والغائب بالشاهد. اهـ

وقال ابن القيم رحمه الله في "بدائع الفوائد" (٤/ ٩): ضرب الأمثال في القرآن **يستفاد منه أمور**:

التذكير والوعظ والحث والزجر والاعتبار والتقرير وتقريب المراد للعقل وتصويره في صورة المحسوس بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس.

وقد تأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر على المدح والذم وعلى الثواب والعقاب وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر.

وقد أخبر سبحانه عن الأمثال التي يضربها لعباده، يدلهم على صحة ما أخبر به أن أهل العلم هم المنتفعون بها المختصون بعلمها.

وفي القرآن بضعة وأربعون مثلًا، وكان بعض السلف إذا مر بمثل لا يفهمه بكى، ويقول: لست من العالمين. اهـ

وقال ابن عثيمين في "تفسير سورة العنكبوت": والفائدة الملموسة القريبة جدًا من ضرب الأمثال: هي تقريب العقول إلى الأذهان، إذ أن المثل هو ضرب شيء معقول قد يَبعدُ عن الإنسان تصوره بشيء محسوس يسهل تصوره. اهـ

وقال السعدي في القواعد الحسان في تفسير القرآن(١ \٦٤-٦٩): القاعدة الثانية والعشرون مقاصد أمثلة القرآن: اعلم أن القرآن الكريم احتوى على أعلى وأكمل وأنفع المواضيع التي يحتاج الخلق إليها في جميع الأنواع، فقد احتوى على أحسن طرق التعليم، وإيصال المعاني إلى القلوب بأيسر شيء وأوضحه.

فمن أنواع تعاليمه العالية: ضرب الأمثال، وهذا النوع يذكره الباري سبحانه في الأمور المهمة، كالتوحيد وحال الموحد والشرك وحال أهله، والأعمال العامة الجليلة. ويقصد بذلك كله توضيح المعاني النافعة، وتمثيلها بالأمور المحسوسة،

ليصير القلب كأنه يشاهد معانيها رأي العين. وهذا من عناية الباري بعباده ولطفه. اهـ.

الفصل الثاني

بيان الأمثال على ترتيب المصحف

سورة البقرة

الآيـة الأولـى:

١- قال تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ * مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾[البقرة:١٦-١٨].

الشرح:

هذه ثلاثة أمثلة في هذا الموطن ضربها الله عزو جل للمنافقين، إذ أن الله عزو جل ذكر في أول سورة البقرة حال المؤمنين فقال: ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ* ﴾ ثم ثنى بحال الكافرين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ثم ثلث بحال النافقين، وأخبر بصفاتهم

السيئة المُنكرة فقال ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

ثم قال تعالى ﴿أُولَئِكَ﴾ أي: **الذين تقدم ذكرهم من أهل النفاق،** ﴿الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾: **ابتاعوا الحق و الهداية والنور بالضلالة فبئس البيع بيعهم، وبئس الشراء شراؤهم،** وهذا مثل قرآني إذ أن استبدل الشر بالخير وهو من المعاني وليس من الحسيَّات، ومع ذلك مثله الله بمن يشتري شيئًا محسوسًا، فكانَّ مبتغي النفاق ممن اشتري ﴿الضَّلَالَةَ﴾ **الانحراف، الزندقة، والكفر** : ﴿بِالْهُدَى﴾ **العلم، والإيمان، والنور، والرحمة،** وهذه الصفقة خاسرة؛ ولهذا قال تعالى ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾ **بل هي تجارة كاسدة،** كإنسانٍ يبيع ذهبًا بروث الحيوان فهذا خاسر بلا شك ولاريب، فهكذا هؤلاء أشد خسارة من هذا لأنهم خسروا بهذه الصفقة الكاسدة الدنيا و الآخرة .

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ **لعلم الله بضلال قلوبهم وفسادها**، فصرفهم عن طاعته، ولم يوفقهم لشرعته كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾

ثم ضرب الله عز وجل لهم مثلين: **مثلًا ناريًا، ومثلًا مائيًا**، وفيهما من المعاني البليغة البديعة ما يفهمه كل لبيب، وكل ذي عقل رشيد.

فقال، ﴿مَثَلُهُمْ﴾ **في حال ضلالهم وتخبطهم**، وانحرافهم وتيههم، ﴿كَمَثَلِ﴾ الرجل، ﴿الَّذِي اسْتَوْقَدَ﴾ **حصل**، ﴿نَارًا﴾ **يستفيد ها من غيره فليس عنده نار!** بل هو في ظُلمة شديدة لا يستطيع أن يخرج ولا يدخل ولا يصل إلى متاعه ولا حاجته، فرأى نارًا موقدة فأخذ منها شعلة فأوقد لنفسه نارًا، صار من الظُلمة إلى النور، وصار من الشدة إلى السعة، ﴿ فَلَمَّا أَضَاءَتْ﴾ **تلك النار التي استوقد ها** ﴿مَا حَوْلَهُ﴾ **من المكان** واستأنس واطمأن، وارتاح وحَسُنَّ حاله، وبَصُرت عينه ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ **انطفأ النور فجأة**، وإذا انطفأ النور فجأة لا تكادُ ترى شيئًا، فلو أخرجت يدك لم تراها، بينما لو كان النور غير موجود من أصله ربما ترى ولو تخيُّلات، أو ربما كانت الظلمة خفيفة؛ لكن هؤلاء حين انطفأ نورهم اشتدت ظُلمتهم، وزاد ضلالهم، وازدادت حيرتهم، وزاد شَرُّهم فهذا مثل ضربه الله لهم، يعني : هم أصلاً في ظُلمة فجاءهم نور الإيمان فاظهروا الإيمان، وبسبب ما هم فيه من الشبهات والشكوك، عادوا إلى ظُلمتهم فصاروا في أشد حال، ﴿وَتَرَكَهُمْ

﴿فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ **ظُلمة الليل، وظلمة المكان، وانطماس البصر**، والمثل على أنهم واقعوا في ظُلمة الكفر ظلمة عَميَّت بها قلوبهم وأفئدتهم.

فهم، ﴿صُمٌّ﴾ **لا يسمعون حقًا**، ﴿بُكْمٌ﴾ **لا يتكلمون بحقٍ**، ﴿عُمْيٌ﴾ **لا يبصرون نورًا ولا علمًا ولا هداية**، ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ **لا يستطيعون التوبة والإنابة**.

فملخص المثل أنهم كرجل أوقد نارًا، فحين أضاءت له وبدأ يستفيد منها انطفأت ناره، فعاد إلى ظلمته بل أشد.

الآية الثانية:

٢- **قال تعالى:** ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة:١٩-٢٠].

الشرح:

﴿أَوْ﴾ **أن مثلهم**، ﴿كَصَيِّبٍ﴾ **مطر كثير**، ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ **السحاب** فمثل الله عز وجل الإيمان في الآية الأولى بالنار، ومثل الإيمان في الآية الثانية بالمطر الكثير المدرار، ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ﴾ **ظُلمة الليل، وظُلمة المطر**، وهذا كناية عن الظلمة التي هم فيها: ظُلمة النفاق، وظُلمة الكفر، ﴿وَرَعْدٌ﴾ **أصوات**، وهو ما في القرآن من الزواجر والفواقر والترهيب لهؤلاء، فحين يسمعون زواجر القرآن كأنها رعود تزلزلهم، ﴿وَبَرْقٌ﴾ **يضيءُ لهم**، وهو ما هم فيه من الهدى والنور والضياء لكنهم

مع ذلك ما استفادوا منه لأنهم : ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ خوفًا، ﴿مِنَ الصَّوَاعِقِ﴾ وهذا مثل ضربه الله لإعراضهم، كمن يجعل إصبعه في أذنه لا يسمع شيئًا، فإذا سمعوا، ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ [البقرة:١٨٩]، ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ﴾ [آل عمران:١٣١]، لا يستجيبون ولا يسمعون، ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ يفعلون ذلك مخافة الموت وهو نازل بهم، ﴿وَاللهُ مُحِيطٌ﴾ احاطت علم وقدرة، ﴿بِالْكَافِرِينَ﴾ المعرضين عن دين رب العالمين، فيُجازيهم بأعمالهم في الدنيا و الآخرة.

ومن شأنهم أنهم، ﴿ يَكَادُ ﴾ يقربُ، ﴿ الْبَرْقُ ﴾ اللامع: ﴿ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ لبهاء نوره ولشدة ظهوره، ﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ﴾ البرق، ﴿لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ ﴾ في نوره يعني: يقع لهم بعض نور، والمعنى أنهم لما كانوا مع النبي صلى الله عليه وسلم ومع أصحابه يسمعون القرآن والمواعظ، فيقع لهم النور والضياء لكن سُرعان ما يعودون إلى ظُلمة الكفر بسبب الشكوك التي عندهم، ﴿ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ﴾ وقفوا في مكانهم، لا يستطيعون الذهاب ولا الإياب؛ لشدة الظُلمة ، ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ فلا يسمعون مسموعًا، ولا يُبصرون مُبصرًا، ﴿ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء؛ لكمال علمه وقدرته، ومع ذلك أقام عليهم بالحجج القويمة.

فهذان مثلان عظيمان في هاتين الآيتين وما لحق بهما في بيان حال أهل النفاق مع القرآن والسنة، فهم في ظُلمة وإذا وُجِدَ لهم نور سُرعان ما ينطمس ويذهب؛

لشدة ظُلمات القلب عندهم، ولشدة إعراضهم، وقسوة قلوبهم، وكأنهم في مطر وغيث، فالقرآن والسنة بين أظهرهم لكنهم لا يستفيدون إلا أنهم يتألمون من شدة وعظهما وزجرهما، ومع ذلك يعودون لما هم فيه في ظُلمتهم والله المستعان، فالهداية من الله والتوفيق منه وحده.

الآيـة الـثـالـثـة :

٣- **قال تعالى:** ﴿ إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾[البقرة:٢٦].

الشرح:

جاء في كتب التفسير : أن الله عز وجل ضرب مثلًا **بالعنكبوت والذباب**، فأعترض الكافرون عند ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿ إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ أي: **ما فوقها في الكبر أو دونها في الصغر** ، إذ أنه لا حياء في الحق، فالله عز وجل يضرب هذه الأمثال؛ لبيان حقارة الأصنام وعُباد الأصنام: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[العنكبوت:٤١]،

لايقيها حرًا ولاقرًا ولامطرًا ولا شيئًا، والبعوضة عند الناس الآن "النامس"، ويقول العلماء: أنها البق.

والناس مع هذه الأمثال نوعان: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ حين تنزل هذه الأمثال وتُضرب، ﴿ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ فيزدادون إيمانًا إلى إيمانهم، ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ ﴾ معترضين، ﴿مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾ لجهلهم وسخافة عقولهم، وإلا فإن الله عز وجل ضرب هذه الأمثال؛ لبيان ضلالهم وحقارة آلهتهم، وفي ضربها من الحكم ما يعلمه أولوا الألباب والعقول، وقد قال الله عز وجل: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾[التوبة:١٢٤-١٢٥].

﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا ﴾ من الكفار والمنافقين أصحاب الشكوك، ﴿ وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾ من المؤمنين الموحدين الطائعين، ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ من فسق وخرج عن الطاعة.

الآية الرابعة:

٤- قال تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة:٧٤].

الشرح:

قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ ضرب الله هذا المثل: لبيان قسوة قلوب المعرضين عن دين رب العالمين، بأنها كالحجارة بل أشد، فالحجارة الصماء قد تخرج من خلالها عيون تُسقي الماء، وربما تساقطت من أعالي الجبال من خشية الله عز وجل كما قال الله عز وجل، ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ أما هؤلاء من بني إسرائيل فقد قست قلوبهم؛ لإعراضهم وجحودهم: ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ أي: **بل أشد قسوة أو وأشد قسوة**، فكلا المعنيان صحيحان، ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ ﴾ أي: من بعض الحجارة وليس كلها، ﴿ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ ﴾ **العيون والماء**، ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ﴾ **ينابيع جارية**، ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ ﴾ **يسقط** ﴿ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ﴾، وعن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ»[1].

الآية الخامسة:

٥- قال تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[البقرة:٨٦].

الشرح:

---

[1] أخرجه البخاري (٦٤٠٧) وأخرجه مسلم (٧٧٩) بلفظ «مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يُذْكَرُ اللهُ = = فِيهِ، وَالْبَيْتِ الَّذِي لَا يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ» اهـ.

قوله تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ ﴾أي: **من بني إسرائيل ممن ترك العمل بالتوراة** ، ومن في بابهم ممن ترك العمل بالقرآن والسنة، ﴿الَّذِينَ اشْتَرَوُا ﴾ جعل الله عز وجل مُقدم الدنيا على الآخرة، والطائع للشيطان المعرض عن طاعة الرحمن كالذي اشترى وعاوض: ﴿ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ **الزائلة الكاسدة**، فعن أبي هريرة رضى الله غنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ**» [٢]: ﴿ بِالآخِرَةِ ﴾**الباقية**؛ وهذا لسخافة عقولهم وقلة فهومهم، وإلا فقد قال بعض السلف: **"لو كانت الأرض من الذهب ولكنها تفنى، والآخرة من الخزف ولكنها تبقى لكان الاختيار للآخرة؛ لأثرتُ الباقي على الفاني"**، ﴿ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ يُمنعون من العذاب، بل خالدين فيها أبدًا ﴿ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ يمنعون من عذاب الله و بطشه كما قال تعالى : ﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [البقرة:١٦٧]

الآية السادسة:

٦- **قال تعالى**: ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾[البقرة:٩٠].

الشرح:

---

[٢] أخرجه مسلم (٢٩٥٦).

هذا على المعنى الأول: أن الذين آثروا الكفر على الإيمان كأنهم اشتروا الكفر وزهدوا في الإيمان، والرأي الصحيح الموافق للعقل: أن الإنسان يؤثر الإيمان على الكُفران وعلى العصيان؛ لأن الإيمان محبوب إلى الملك الديان وموصل إليه، بخلاف الكفر فإنه مُبعد منه ومؤدٍ إلى غضبه وسخطه.

وقوله تعالى: ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللهُ بَغْيًا ﴾ أي: **بسبب بغيهم ومجاوزتهم، ﴿ أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ لماذا أنزل القرآن على محمد وما أنزله على فلان وفلان؟ لماذا كانت النبوة في العرب ولم تكن في بني إسرائيل وهكذا كما قال تعالى** ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ * وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف: ٣٠ - ٣٢] .

وقد قال تعالى﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾[القصص:٦٨]، ﴿ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ ﴾ من الله عز وجل: ﴿ عَلَى غَضَبٍ ﴾ على ما هم فيه من الغضب، ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ موجع في الآخرة، نسأل الله السلامة والعافية.

الآية السابعة:

٧- قال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾[البقرة:١٧١].

الشرح:

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي: بربهم سبحانه وتعالى، وبنبيهم صلى الله عليه وسلم، ﴿ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ ﴾ يصيح ويرفع صوته، ﴿ بِمَا لا يَسْمَعُ ﴾ ولا يعلم معناه، ﴿ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ﴾ أصوات عالية لا معاني لها ولا فائدة فيها، ﴿ صُمٌّ ﴾ عن سماع الحق، ﴿ بُكْمٌ ﴾ عن النطق به، ﴿ عُمْيٌ ﴾ عن بصره، ﴿ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ شيئًا من أمر الله، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم فاستحبوا الضلالة على الهدى.

فهذا مثل ضربهُ الله عز وجل للكافرين المعرضين عن دين رب العالمين: أن مثلهم كمثل رجل أصم لا يسمع، وأبكم لا يتكلم، وأعمى لا يُبصر ومع ذلك يصيح بما لا يسمع وبما لا يعلم فما عساه يقول؟! وما عساهُ يُفيد؟! فهم في أسوأ حال.

الآية الثامنة:

٨- قال تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾[البقرة:١٧٥].

الشرح:

﴿ أُوْلَئِكَ ﴾ إشارة إلى الكافرين، ﴿ الَّذِينَ اشْتَرَوُا ﴾ عاوضوا ﴿الضَّلالَةَ ﴾ الكفر والنفاق،

﴿ بِالْهُدَى ﴾ بالعلم والإيمان، ﴿ وَالْعَذَابَ ﴾ واشتروا عذاب النار:

﴿ بِالْمَغْفِرَةِ ﴾ والتجاوز، ﴿ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ وبئس القرار.

وهذا العذاب لشديد والخزي الاكبر لأنهم اعرضوا عن الكتاب، والسنة علمًا وعملًا، والله المستعان

وقد تقدم أن هذا الشراء عبارة عن شراء معنوي لا حسي، وهو مثل يضربه الله عز وجل لمن استبدل الخير بالشر.

الآية التاسعة:

٩- قال تعالى: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[البقرة:٢٤٥]

الشرح:

هذا مثلٌ ضربه الله عز وجل للمنفق بأنه كالذي يُقرض الله مع أن الله عز وجل غني عن العالمين: ﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾[الذاريات:٥٨]، لكن أنت حين تقرض المؤمن كأنك تقرض الله، ومن أقرض الله عز وجل ضاعفه له وأجزل له المثوبة، ففي حديث بُريدة رضى الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَإِنَّ لَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلِهِ صَدَقَةٌ»، ثم قال: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَيْهِ صَدَقَةٌ»، قُلْتُ: سَمِعْتُكَ يَا رَسُولَ اللهَّ تَقُولُ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلِهِ صَدَقَةٌ»، ثُمَّ سَمِعْتُكَ تَقُولُ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَيْهِ صَدَقَةٌ»، قَالَ لَهُ: «بِكُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ الدَّيْنُ، فَإِذَا حَلَّ الدَّيْنُ

فَأَنْظَرَهُ فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَيْهِ صَدَقَةٌ»[1]؛ وكان ابن مسعود يُحب القرض على الصدقة، قال: "لأن أقرض مرتين أحب إليَّ من أن أتصدق مرة"، والقرض الحَسن: هو الذي لا رِبا فيه ولا مَنٌّ .

﴿ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ﴾أي: له الأجر والمثوبة، ﴿ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ كما قال تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٦١]، ﴿ وَ﴾من شأن: ﴿ اللهُ ﴾ عز وجل أنه: ﴿ يَقْبِضُ ﴾الرزق عمن شاء ويمنع، ﴿ وَيَبْسُطُ ﴾الرزق لمن شاء، ويوسع﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ تُحشرون فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

الآية العاشرة:

١٠- قال تعالى: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة:٢٦٥].

---

[1] أخرجه أحمد (٢٣٠٤٦)

الشرح:

﴿ لا إِكْرَاهَ﴾ **على الدخول،** ﴿ فِي الدِّينِ ﴾ لأنه بين واضح جلي ،وقد جاء في سبب نزولها ما أخرجه أبو دواد[1] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضى الله عنه ، قَالَ: «كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَكُونُ مِقْلَاتًا فَتَجْعَلُ عَلَى نَفْسِهَا إِنْ عَاشَ لَهَا وَلَدٌ أَنْ تُهَوِّدَهُ، فَلَمَّا أُجْلِيَتْ بَنُو النَّضِيرِ كَانَ فِيهِمْ مِنْ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ فَقَالُوا: لَا نَدَعُ أَبْنَاءَنَا، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ﴾[2]»، ﴿ قَدْ تَبَيَّنَ ﴾ **ظهر وتجلى وتميز لكل منصف،** ﴿ الرُّشْدُ ﴾ **الهدى والإيمان،** ﴿ مِنَ الغَيِّ ﴾ **الكفر والطغيان،** ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ ﴾ **بالشيطان، ومن إليه من الأصنام والأوثان،** ﴿ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ ﴾ **يوحد الله عز وجل،** فقد أخرج مسلم[3]عن طارق بن أشيم أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول لقوم «من وحد الله وكفر بما يعبد من دونه حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل» ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ ﴾ **الحلقة** ﴿الْوُثْقَى ﴾ **المحكمة وهي كلمة التوحيد لا إله إلا الله،** ﴿ لا انفِصَامَ لَهَا ﴾ أي: **لا تنقطع ولا تنكسر،** فمثل الله عز وجل كلمة التوحيد بالعروة الوثقى: **وهي الحلقة التي لا تنفصم،** ﴿ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ **سميع لمن دعاه عليم بمن رجاه.**

---

[1] برقم (٢٦٨١)

[2] [البقرة: ٢٥٦]

[3] برقم (٢٣) .

الآية الحادية عشرة:

١١- قال تعالى: ﴿ اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[البقرة:٢٥٧].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله للمؤمنين والكفار، والإيمان والكفر، فالمؤمن في نور، والكافر في ظُلمة، ، والكفر ظلمة و الإيمان النور.

﴿ اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يتولاهم وينصرهم ويُعينهم ويحفظهم، ﴿ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ ﴾ الشرك والنفاق والحيرة والشك: ﴿ إِلَى النُّورِ ﴾ التوحيد والإيمان والإحسان والطاعة واليقين، ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أعرضوا وأبوا الإيمان، ﴿ أَوْلِيَاؤُهُمُ ﴾ نُصَّارُهم وجلساؤهم:﴿ الطَّاغُوتُ ﴾ الشيطان ومن إليه من الأعوان، ﴿ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ ﴾ الإيمان، ﴿ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ الكُفر والطغيان، ﴿ أُوْلَئِكَ ﴾ أي: الكفار، ﴿ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ سموا بأصحاب النار؛ لملازمتهم لها، ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ لا يخرجون منها كما قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ

---

[1] [البقرة:١٦٧].

يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾[٢]

الآية الثانية عشرة:

١٢- قال تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة:٢٦١].

الشرح:

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ﴾ ليست بأموال غيرهم، فلا يجوز لك التصرف في مال غيرك إلا بإذنه فعند أحمد عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لَا يَحِلّ مَالُ اِمْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِطِيبَةٍ مِنْ نَفْسه»[٣]، ﴿ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ **الإخلاص**، فلا يبذلها رياء ولا سمعة ولا عُجبًا، ﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ ﴾ هذا هو الممثل به، ﴿ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ﴾ **بعد زراعتها**، ﴿ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ﴾ مُضاعفة مبدؤها: الحسنة بسبع أمثالها ثم تُضاعف، ﴿وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ لمن عَلِمَهُ أهلًا وأكثر إخلاصًا، ﴿ وَاللهُ وَاسِعٌ ﴾ في

---

[٢] [فاطر:٣٦-٣٧].

[٣] (٢٠٦٩٥).

عطائه، واسع في ذاته، واسع في سمعه وبصره وصفاته، ﴿ عَلِيمٌ ﴾ لمن تصدق لأجله وأنفق لأجله .

فمَثل الله عز وجل المُنفق ماله بالحبة التي تُنبت عدة سنابل: سبع في كل سنبلة مائة حبة، فتكون الحبة بسبعمائة حبة، فكذلك الصدقة بسبعمائة صدقة، ويدل على ذلك حديث أبي مسعود الأنصاري رضى الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم في شأن ذلك الرجل الذي أعطى ناقةً في سبيل الله: «**لَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِهَا سَبْعُمِائَةِ نَاقَةٍ كُلُّهَا مَخطُومَةٌ** »[1] .

وهذا مثل عظيم ضربه الله عز وجل للمنفقين في سبيله، وهي دعوة إلى بذل المال لمستحقيه، وضُرِبَ هذا المثل حتى يعلم المُكلف عظيم هذه العبادة.

وفي البخاري ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»[2]

---

[1] أخرجه مسلم (١٨٩٢)

[2] البخاري برقم (٦٤٩١) ومسلم (١٣١)

الآية الثالثة عشرة:

١٣- قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾[البقرة:٢٦٤].

الشرح:

﴿ يَا أَيُّهَا ﴾ هذا نداء من الله عز وجل، ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أقروا لله بالوحدانية وأنفقوا في سبيل الله النفقات الكثيرات كل بحسب قدرته : ﴿ لا تُبْطِلُوا ﴾ تذهبوا أجر، ﴿صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ ﴾ ﴿ وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾[٣] تقول: أنا أعطيتك ومنحتك، ﴿ وَالأَذَى ﴾ لأن هذا يؤذي الآخذ، فمن كان يُنفق ويَمِنْ حاله: ﴿ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ ﴾ يُنفق مراءةً لا لأجل الله ولا متابعًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ﴿ وَلا يُؤْمِنُ بِاللهِ ﴾ ربًا، ﴿ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ موعدًا، وهذا عمله لا يُقبله الله كما قال الله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾[٤]، ﴿ فَمَثَلُهُ ﴾ أي: هذا المُنفق المُرائي: ﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ ﴾ حجر، ﴿ عَلَيْهِ تُرَابٌ ﴾ والتراب يُستخدم للزراعة وفيه فوائد، لكن إذا كان على حجر سُرعان ما يذهب،

---

[٣] [المدثر:٦]

[٤] [الفرقان:٢٣] .

﴿ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ ﴾ مطر غزير، ﴿ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ﴾ أملس، لا تُراب عليه فأصبح لا يصلح للزراعة ولا للبناء ولا لشيء، فكذلك المراؤون يذهب ثواب أعمالهم ﴿ لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ أي: مما أنفقوا وعَمِلوا، وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضى الله عنه في صحيح مسلم[٥] قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»، ﴿ وَاللهُ لا يَهْدِي ﴾ لا يوفق ويعين، ﴿الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ لعلمه بضلالهم وسوء فعالهم .

---

[٥] برقم (١٩٠٥) .

فضربَ الله مثلًا للمنفق المخلص بالحبة التي يُضاعف ثمرها وأجرها، وضرب مثلًا للمنفق المنان والمرائي بالحجر الصوان الصخري الذي عليه تراب فذهب ترابه بفعل المطر أي: بفعل أعماله وعدم إخلاصه، فلا أبقى ولا حفظ أجره بل أصبح من الخاسرين .

الآية الرابعة عشرة:

١٤- قال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[البقرة:٢٦٥].

الشرح:

وهذا مثل للمنفق المُخلص لله عز وجل، وفي هذا عظيم شأن الإنفاق في سبيل الله فهو من أعظم أسباب رضا الله عز وجل ودخول الجنة ولما ذكر الله عز وجل حال المرائين ذكر حال المخلصين.

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ﴾ طلبًا منهم لـ﴿ مَرْضَاةِ اللهِ ﴾ إخلاصًا لله وطاعة لله، ﴿ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ على الحق، ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ ﴾ مزرعة بستان ﴿ بِرَبْوَةٍ ﴾ المكان المرتفع؛ لأن المزرعة في المكان الواطي من الأرض ربما يغرقها الماء فإذا بها قد تغيرت في صفاتها وشأنها، وربما فسد ثمرها، وربما جاءتها الآفات، لكن المرتفعة يأتيها هواء طلق وشمس، وإذا فيها ماء انتفعت به، وإذا كَثُر الماء

ذهب وما أثر فيها ، ﴿ أَصَابَهَا وَابِلٌ ﴾ **مطر غزير،** ﴿ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾ **أرض طيبة، وثمر طيب،** ﴿ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ **الرذاذ الخفيف الذي يأتي بالليل** ومع ذلك تنتفع به، المطر الغزير لا يُذهبها والطل ينفعها، بخلاف المُنفق في غير طاعة الله عز وجل مثله كمثل تُراب على صفوان، ربما بلله الطل وأثر فيه وأفسده، والمطر الغزير يُذهبه، فهذان مثلان عظيمان ضربهما الله عز وجل للمُنفق مع المراءة والمن، والمُنفق مع الإخلاص لله عز وجل؛ وكما أنه لا سواء بين الأرضين كذلك لا سواء بين الرجلين، **وفي أَبَي هُرَيْرَةَ رضى الله عنه، قَالَ رَسُولُ اللهِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:** «مَثَلُ البَخِيلِ وَالْمُتَصَدِّقِ، كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ، مِنْ لَدُنْ ثَدْيَيْهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا، فَأَمَّا الْمُنْفِقُ: فَلاَ يُنْفِقُ شَيْئًا إِلَّا مَادَّتْ عَلَى جِلْدِهِ، حَتَّى تُجِنَّ بَنَانَهُ وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ، وَأَمَّا البَخِيلُ: فَلاَ يُرِيدُ يُنْفِقُ إِلَّا لَزِمَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَوْضِعَهَا، فَهُوَ يُوسِعُهَا فَلاَ تَتَّسِعُ »[1] وَيُشِيرُ بِإِصْبَعِهِ إِلَى حَلْقِهِ .

﴿ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ **يرى أعمالكم وأفعالكم فيجازي المُحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.**

---

[1] رواه البخاري برقم (١٤٤٣) ومسلم برقم (١٠٢١) .

الآية الخامسة عشرة:

١٥- قال تعالى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة:٢٦٦].

الشرح:

هذا آخر مثل ضربه الله عز وجل لمن ينفق ماله رياء وسمعة، فقال تعالى: ﴿ أَيَوَدُّ ﴾ أيُحبُ، ويرغب : ﴿ أَحَدُكُمْ ﴾ يا معاشر المسلمين، ﴿ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾ بستان عظيم، ﴿ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ فيه من أنواع الفواكه ومنها: النخيل والأعناب، ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ سهل سقيها، وجنيها، وعجيب ثمرها، ﴿لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ إن شاء أن يأكل وإن شاء أن يُهدي وإن شاء ادخر، ﴿ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ ﴾ فأصبح شيخًا قد كَبُرَ سنهُ ورق عظمه واحدودب ظهره، فعجز عن زرعها والقيام بها، ولم يكن له من يُعينه عليها، ﴿ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ ﴾ صغار عاجزون لا يستطيعون القيام بشأنها، فصارت مُعرضة لليباس والخراب بعد البهاء والنماء،﴿ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ ﴾ريح شديدة،﴿ فِيهِ نَارٌ﴾ شديدة، ﴿فَاحْتَرَقَتْ﴾ في شدة ضعفه وحاجته وفي صِغر أبنائه، فكيف يكون حاله؟ فلو قُدِر أنها ذهبت في حال شبابه فأنه يستطيع أن يعمل أو يسترزق، وإن ضعف كان معه ذرية وخدم وحشم يقومون بعمله؛ لكن حاله بخلاف ذلك.

وهذا مثل للعامل يعمل بطاعة الله عز وجل ثم يُغير ويُبدل فتذهب حسناته وأجوره، فعن عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ رحمه الله قَالَ: قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، يَوْمًا لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فِيمَ تَرَوْنَ هَذِهِ الآية نَزَلَتْ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾ قَالُوا: اللهُ أَعْلَمُ، فَغَضِبَ عُمَرُ فَقَالَ: «قُولُوا نَعْلَمُ أَوْ لاَ نَعْلَمُ»، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِي نَفْسِي مِنْهَا شَيْءٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ عُمَرُ: «يَا ابْنَ أَخِي قُلْ وَلاَ تَحْقِرْ نَفْسَكَ»، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ضُرِبَتْ مَثَلًا لِعَمَلٍ، قَالَ عُمَرُ: «أَيُّ عَمَلٍ؟» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِعَمَلٍ، قَالَ عُمَرُ: «لِرَجُلٍ غَنِيٍّ يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ بَعَثَ اللهُ لَهُ الشَّيْطَانَ، فَعَمِلَ بِالْمَعَاصِي حَتَّى أَغْرَقَ أَعْمَالَهُ»[1] ، فعلى الإنسان أن يُحسن عمله لا سيما في الخواتيم فعن سهل بن سعد الساعدي رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ»[2] .

﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي: كما ضرب هذا المثل؛ لتعلموا منه تعين العمل الصالح إلى الممات، والحذر من الردة ومُبطلات الأعمال، ﴿ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ ﴾ الحجج: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ فتتعظون وتعملون.

---

[1] أخرجه البخاري (٤٥٣٨) .

[2] أخرجه البخاري (٦٦٠٧) ومسلم (١١٢)

الآية السادسة عشرة:

١٦- قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥﴾ [البقرة:٢٧٥].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله عز وجل لآكل الربا ومتعاطيه، هذا الجرم الذي حذر منه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم منه، وهو معدود من أكبر الكبائر، وقد تنوعت سبله وطرقه في هذه الأزمان بعد تسلط وفشوا الرأسمالية العالمية، أسال الله السلامة .

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ **وهو أخذ الزائد من المال بغير وجه حق**، جزاؤهم، ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ **يوم القيامة**: ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ﴾ أي: أن آكل الربا مثله يوم القيامة كمثل الممسوس الذي لا يستطيع أن يتحكم في أمر نفسه، ربما قام وصُرِع ها هنا وها هنا.

وما أكثر أكلة الربا في هذه الأزمان وربما سموها بغير اسمها، فيسمونها بالفوائد فعلى الإنسان أن يكون حذرًا من هذه المعاملات التي هي سبب لإفساد المال في الدنيا، فعن ابْنِ مَسْعُودٍ رضى الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم:

«مَا أَحَدٌ أَكْثَرَ مِنَ الرِّبَا، إِلَّا كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ إِلَى قِلَّةٍ»[١]، وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم : «الرِّبَا بِضْعٌ وَسَبْعُونَ بَابًا»[٢]، وجاء في زيادة: «أَصْغَرُهَا كَالْوَاقِعِ عَلَى أُمِّهِ»، نسأل الله السلامة والعافية، وفي حديث جابر رضي الله عنه: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آكِلَ الرِّبَا، وَمُؤْكِلَهُ، وَكَاتِبَهُ، وَشَاهِدَيْهِ»[٣]وفي حديث سمرة رضى الله عنه الطويل «فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ - حَسِبْتُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ - أَحْمَرَ مِثْلِ الدَّمِ، وَإِذَا فِي النَّهَرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبَحُ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهَرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةً كَثِيرَةً، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ مَا يَسْبَحُ، ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ الحِجَارَةَ، فَيَفْغَرُ لَهُ فَاهُ فَيُلْقِمُهُ حَجَرًا فَيَنْطَلِقُ يَسْبَحُ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ كُلَّمَا رَجَعَ إِلَيْهِ فَغَرَ لَهُ فَاهُ فَأَلْقَمَهُ حَجَرًا... وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يَسْبَحُ فِي النَّهَرِ وَيُلْقَمُ الحَجَرَ، فَإِنَّهُ آكِلُ الرِّبَا»[٤]

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الخزي لهم والحال الذي ينزل بهم: ﴿ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ ﴾ الذي يكون عن تراضى وقد أحله الله عز وجل﴿ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ ، فازدادوا إثمًا بالمعاملة الربوية والخيانة والتلبيس على الناس، ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ ﴾ وهو عن تراض، ﴿ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ لما فيه من أكل أموال الناس بالباطل، ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ ۖ ﴾

---

[١] أخرجه ابن ماجه (٢٢٧٩)

[٢] أخرجه

[٣] أخرجه مسلم (١٥٩٨) .

[٤] أخرجه البخاري (٧٠٤٧) .

ذِكرى: ﴿ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ ﴾ عن الرِبا: ﴿ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ ﴾ أي: من المعاملات التي كانت قبل إسلامه أو قبل توبته، ﴿ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ يعفو عنه، ﴿ وَمَنْ عَادَ ﴾ إلى الرِبا وأكله، ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ وهذا الوعيد في حق من مات على الكفر، وأما آكل الرِبا من المسلمين فهو من مُرتكبي الكبائر والشأن عند أهل السنة والجماعة: أن أصحاب الكبائر في النار لا يُخلدون، وهو تحت المشيئة إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [النساء:٤٨].

وبهذا نكون قد انتهينا من الأمثال القرآنية المتعلقة بسورة البقرة، والحمد لله رب العالمين.

سورة آل عمران

الآية الأولى:

١٧- قال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾[آل عمران:١١٧].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله عز وجل لحال نفقات الكافرين والمنافقين التي لم يُخلصوا فيها لله عز وجل الواحد العظيم، ولم يُتابعوا فيها محمدًا صلى الله عليه وسلم النبي الكريم: ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ ﴾ **من الأموال الكثيرات،** ﴿ يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ ﴾ **شديدة،** ﴿ فِيهَا صِرٌّ ﴾ **صوت شديد مُفزع،** و برد قارس إذا أصابت الزرع أهلكته وأفسدته، كما يُسمى عندنا في اليمن بـ "الضريب"، فيكون الناس في زراعة وحُسن حال، فإذا جاءت هذه الريح تُصبح البلاد يابسة حارقة، ليس فيها كثير ما ينتفع، فأعمال المنافقين كمزرعة مرت بها ريح صِر: ﴿ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ﴾ **فأصبحوا لا زرع يستفيدونه ولا حُفظت أموالهم، فذهبت أموالهم وأجورهم،** ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ بهذا الحال الذي وصلوا

إليه والوضع الذي هم فيه؛ لأن الله ليس بظلَّام للعبيد، ﴿ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بسوء سريرتهم وفِعالهم

وكما أن هذا مثل المنفق غير المُخلص ففيها دعوة إلى الإنفاق والإخلاص.

الآية الثانية:

١٨- **قال تعالى:** ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران:١٧٧].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله للمنافقين ومن إليهم من الكافرين بـ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ ﴾ **اعتاضوا الإيمان الذي هو أمر الله ودينه وشرعه بالكفر والعصيان الذي هو نهي الله عز وجل:** ﴿ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ﴾ **لأن الله غني عن العالمين عبدوه أو كفروه كما قال تعالى:** ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾[(١)] وإنما يضرون أنفسهم، وقد قال الله عز وجل: «يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا»[(٢)] فالله هو الغني الحميد، لا يحتاج إلى عبادة العابدين ولا يضره شرك المشركين، وإنما اختبر الناس فمن أطاعه أكرمه وأدناه،

---

(١) [الزمر :٧] .

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) عن أبي ذر رضى الله عنه .

ومن عصاه وكفر به طرده وأقصاه ، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ **موجع وشديد** كما قال تعالى﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢)﴾[1] .

الآية الثالثة:

١٩- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران:١٨٧].

الشرح:

هذه الآية ضربها الله عز وجل لأهل الكتاب وكانوا علماء غير عاملين محذرًا المسلمين من سلوك سبيلهم والأخذ بطريقهم : ﴿وَ﴾ **اذكر يا محمد،** ﴿إِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ ﴾ **عهد،** ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ **أوتوا العلم من اليهود والنصارى** :﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ ﴾ إذا سألوكم أو احتاجوا إلى ذلك، وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال سول الله صلى الله عليه وسلم : «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ يَعْلَمُهُ فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[2]، ﴿ وَلا تَكْتُمُونَهُ ﴾ وهذا ليس على إطلاقه، فقد

(١) [الحج: ١٩-٢٢]

(٢) أخرجه أحمد (١٠٤٢٠)

بوب البخاري: "بَابُ مَنْ خَصَّ بِالْعِلْمِ قَوْمًا دُونَ قوم"، واستدل بحديث عائشة رضى الله عنها أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «يَا عَائِشَةُ، لَوْلاَ أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ لَأَمَرْتُ بِالْبَيْتِ، فَهُدِمَ، فَأَدْخَلْتُ فِيهِ مَا أُخْرِجَ مِنْهُ، وَأَلْزَقْتُهُ بِالأَرْضِ، وَجَعَلْتُ لَهُ بَابَيْنِ، بَابًا شَرْقِيًّا، وَبَابًا غَرْبِيًّا، فَبَلَغْتُ بِهِ أَسَاسَ إِبْرَاهِيمَ»[١]، وعن معاذ رضي الله عنه قال كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم عَلَى حِمَارٍ، يُقَالُ لَهُ: عُفَيْرٌ، قَالَ: فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ، تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ؟ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ؟» قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوا اللهَ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ، قَالَ: «لاَ تُبَشِّرْهُمْ، فَيَتَّكِلُوا»[٢]،فأخبر بها معاذ عند موته تأثمًا، وقال أبو هريرة رضى الله عنه: "حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وِعَاءَيْنِ: فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَثَثْتُهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَلَوْ بَثَثْتُهُ قُطِعَ هَذَا البُلْعُومُ"[٣].

﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾تركوا العمل به وأعرضوا عنه، ﴿ وَاشْتَرَوْا بِهِ ﴾ عاوضوا﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ دنيا فانية زائلة ومناصب ذاهبة، ﴿ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾

---

[١] أخرجه البخاري (١٥٨٦) ومسلم (١٣٣٣)

[٢] أخرجه البخاري(٢٨٥٦) ومسلم (٤٩)

[٣] أخرجه البخاري (١٢٠) .

لأنهم استبدلوا الباقي بالفاني، والقليل بالكثير، والعظيم بالحقير، والذهب بالتبر، نسأل الله السلامة والعافية.

سورة المائدة

الآية الأولى:

٢٠- قال تعالى: ﴿ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[المائدة:١٦].

الشرح:

﴿ يَهْدِي بِهِ اللهُ ﴾ أي: بالقرآن، وقيل: بالنبي عليه الصلاة والسلام، ﴿ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ ﴾ من اجتهد لبلوغ رضوان الله سبحانه وتعالى ولازم الهدى والطاعة والبر، ﴿ سُبُلَ السَّلامِ ﴾ سبيل الإسلام، جُمِعَ؛ لكثرة طُرق الإسلام وإلا فهو سبيل واحد كما قال تعالى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾[1] ، ﴿ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ ﴾ ظُلمات الشرك والكفر والنفاق والبدعة والمعصية، ﴿ إِلَى النُّورِ ﴾ نور التوحيد والسنة والعلم والإيمان والهدى، ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ القدري والشرعي،

﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ طريق قويم.

ووجه الشاهد: أن الله عز وجل ضرب مثلًا للشرك والنفاق بالظُلمات، وضرب مثلًا للإيمان والطاعة بالنور.،

---

(١) [الفاتحة:٦-٧] .

الآية الثانية:

٢١- قال تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾[المائدة:٣٢].

الشرح:

لَمَّا قصَّ الله عز وجل ما كان من شأن ابنيَّ آدم وقتل أحدهما للآخر، وكونه صار من النادمين والخاسرين، حيث قال ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ قال تعالى عند ذلك : ﴿ مِنْ أَجْلِ ﴾ قتل ابن آدم أخاه ﴿ ذَلِكَ كَتَبْنَا ﴾ قضينا وحكمنا: ﴿ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ وهو حُكم علينا لأنه جاء في شرعنا وأقره النبي صلى الله عليه وسلم، ﴿ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ أي: قتلها ظُلمًا

وعدوانًا بغير جريرة؛ فعن عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ الله، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»(١)، ﴿ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ ﴾ قتلها بالفساد وقطع السبيل بغير وجه حق، ﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ يعني: إثمه عظيم، ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾ أبقاها وسعى في خلاصها، ﴿ فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ ؛لأن سلامتها فيها سلامتهم جميعًا ويستدل العلماء بهذا العموم على أن من تبرع بدم أو شارك في علاج مريض كاد أن يتلف أو سعى في إسعاف مترددٍ ونحو ذلك: أن له أجرًا عظيمًا؛ حيث سعى في إحياء هذه النفس.

والشاهد من الآية: أن الله ضرب مثلًا لقاتل النفس كقاتل الناس جميعًا، ومُحيي النفس الواحدة كمحيي الناس جميعًا، فكم على القاتل من الآثام بسبب قتله للنفس المعصومة؟ وكم للمحيي من الأجور؛ بسبب حفاظه على النفس المعصومة، والنفس المعصومة: هي نفس المسلم، ونفس المعاهد، ونفس المستأمن لا يجوز أن يُتعرض لها بحال، وشأن هؤلاء لولي أمر المسلمين إذا أوقعوا شرًا أو فسادًا ونحوه إن شاء حكم فيهم تعزيرًا بما يراه نافعًا للأمة، وإن كانت هناك حدود حكم بهم بالحدود فالقاتل يُقتل، والزاني البِكر يُجلد، والثيب يُرجم،

(١) أخرجه البخاري (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦)

والسارق تقطع يده، وشارب الخمر يُجلد وهكذا.

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا ﴾ جاءت بني إسرائيل رُسل الله عز وجل: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الحجج الواضحات، ﴿ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ ﴾ لم يعملوا بعلمهم فكانوا، ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ الوعظ والحجج ﴿فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ متجاوزون بالمعاصي والسيئات، والله المستعان.

سورة الأنعام

الآية الأولى:

٢٢- قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾[الأنعام:٢٥].

الشرح:

في هذه الآية ضرب الله مثلًا للمُعرِض كمن في قلبه غطاء، وفي أذنه حملٌ يمنعه من السماع، ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾أي: من الكفار، ﴿مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ يا محمد حين تلاوتك القرآن، ﴿ وَجَعَلْنَا﴾ صيرنا، ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ أغطية، وإن كانت أغطية معنوية إلا أنها كالحسية فأصبحوا لا يستجيبون لما يسمعون، ﴿ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ أي: حملًا ثقيلًا بحيث لا يسمعون، وهم مع ذلك يسمعون

الأصوات ولكنهم لا يستفيدون من المواعظ والعضات، كما قال تعالى: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾[الأعراف: ١٧٩]، ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ ﴾ حجة ﴿ لا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ لتعمق الكفر في قلوبهم، سألوا انشقاق القمر فلمَّا انشق قالوا: ﴿ سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾[١] ، سألوا الآيات لَمَّا أنزل القرآن قالوا: ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾[٢].

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ ﴾ يُخاصمونك،﴿ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا ﴾ أي: القرآن، ﴿ إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ حكايات الأولين التي لا تقوم على علم متين، وهذا من كذبهم وتلبيسهم، وقد قال الله عز وجل عنهم: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾[البقرة:١٨].

الآية الثانية:

٢٣- قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[الأنعام:٣٩].

الشرح:

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ ضرب الله لهم مثلًا بالأصم الذي لا يسمع، وبالأبكم الذي لا يتكلم، وبالرجل يكون في الظُلمة لا يرى النور

---

(١) [القمر:٢] .

(٢) [المدثر:٢٤].

ولا يعرف الطريق، وهي ظُلمات الكفر والشك والريب، ﴿ مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ ﴾ ممن علمه أهلًا للضلال والانحراف، ﴿ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ يوفقه للإسلام، والصراط: الإسلام، كما جاء مُفسرًا في حديث النواس بن سمعان عند أحمد(١٧٦٣٤) عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا، وَلَا تَتَعَرَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ، قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ: حُدُودُ اللهِ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ: مَحَارِمُ اللهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللهِ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقَ الصِّرَاطِ: وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ »

فتأمل هذا المثل العظيم: لبيان حال الكافر أنه أصم مع أنه يسمع ربما ما هو أدنى من الصوت المسموع، وأبكم مع أنه يتكلم وينطق، وأعمى مع أنه يُبصر؛ لكن لَمَّا كان بعيدًا عن الحق والهدى ضُرِبَ له هذا المثل الذي لو كان محسوسًا لكان مذمة في أصحابه من حيث نقصهم، فالكفار على هذا الحال ولذلك لم ولن يستفيدوا من الآيات والعظات.

الآية الثالثة:

٢٤- **قال تعالى:** ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ

يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام:٧١].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله لمن صار حيرانًا شاكًا بسبب طاعته للشيطان فلا يستفيد من محاولة إنقاذه وإخراجه مما هو فيه .

﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد: ﴿ أَنَدْعُوا ﴾ نعبد، ﴿ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ من الأصنام والأوثان، ﴿ مَا لا يَنفَعُنَا ﴾ يجلب لنا نفعًا، ﴿ وَلا يَضُرُّنَا ﴾ يدفع عنا ضرًا، ﴿ وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا ﴾ إلى الوراء مرتدين عن الإسلام، فالرد على الأعقاب مثل مع أنه ربما يمشي إلى الأمام، لكن لَمَّا رجع إلى الكفر كأنه ارتد على عقبه، ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ ﴾ وفقنا وسددنا وعلمنا، وهذا حاله،﴿ كَالَّذِي ﴾ كرجلٍ: ﴿ اسْتَهْوَتْهُ﴾ هوت به، ﴿الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ ﴾ مُسافر وجاءت الشياطين ولعبت به فجعلته يسير في الأرض لا يدري أين يذهب، ﴿ حَيْرَانَ ﴾ لا يدري أين يتجه! ويذكرون: أن الشيطان كانت تستهويهم وتتحرك بهم وتزيغهم؛ وذلك بسبب تعلقهم بها، ﴿لَهُ أَصْحَابٌ ﴾ وهم أهل الإسلام، ﴿ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ﴾ يا فلان: ادخل في الإسلام سلم نفسك من العذاب والضلال فيأبى، فحال هذا المُجرم الكافر العاصي كحال رجل في الصحراء استهوته الشياطين فأضاعته، وأُناس قد سلمهم الله يقولون له: تعال إلينا ،تغنم فيأبى، ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ ﴾ طريق الله، ﴿ هُوَ الْهُدَى ﴾ حقًا في الدنيا والآخرة، ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ ﴾ ننقاد، ﴿ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

والهداية توفيق إذا هداك الله فقد امتنَّ عليك مِنَّة عظيمة: ﴿ مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾ [الكهف:١٧].

الآية الرابعة:

٢٥- قال تعالى: ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[الأنعام:١٢٢].

الشرح:

﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ هذا مثل ضربه الله عز وجل للكافر إذا أسلم فإنه يكون كالميت لا حراك فيه ولا نفع منه، فيحييه الله عز وجل بالإيمان، ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ **ويجعله في نور بعد ظُلمة وفي هدى بعد ضلال، هل يكون مثله:** ﴿ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ **قد التبست عليهم الطرق، واظلمت عليهم السبل، فهو في تيه وحيرة، فهذا هو حال المُشرك المُندد،** ﴿ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ **إلا بالإسلام وهيهات؛** لأن الله عز وجل لم يُرد منه ذلك كونًا؛ لعلمه أنه ليس أهلًا للهداية، ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ **من الأعمال السيئة؛** ولهذا لم تقع منهم التوبة والإنابة والرجوع إلى الله عز وجل.

فهذا مثل عظيم: من أن المستقيم على دين الله كالحي، والمعرض عن دين الله كالميت، والمستقيم على دين الله في نور، والمعرض عن دين الله في ظُلمة، والجزاء

من جنس العمل، من كان في نور الإيمان سيكون في نور الجِنان، ومن كان في ظُلمة الكفران سيكون في ظُلمة النيران، نسأل الله السلامة والعافية.

الآية الخامسة:

٢٦- قال تعالى: ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾[الأنعام:١٢٥].

الشرح:

﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللهُ ﴾ كونًا، ﴿ أَنْ يَهدِيَهُ﴾ للإسلام، ﴿ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ﴾ يُحبه يوده كما قال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾[الحجرات:٧]، ﴿وَمَنْ يُرِدْ﴾ كونًا، ﴿أَنْ يُضِلَّهُ ﴾ يخذلهم فـ﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ضيق لا سعة فيه، مثله: ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ يصعد إلى السماء وينقطع منه النفس، ويقل عليه الأكسجين، وربما حصل عليه ضيق الصدر، وربما مات، ﴿ كَذَلِكَ ﴾ كما جعل هذا حاله ﴿ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ ﴾ العذاب الشديد، ﴿عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ فالمؤمن في انشراح صدر، والكافر في ضيق صدر، والمؤمن في حسن حال، والكافر في سوء حال.

سورة الأعراف

الآية الأولى:

٢٧- قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[الأعراف:٥٧].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله عز وجل للبعث والنشور؛ لأن الكفار كانوا يُكذبون به فأخبرهم الله أنه كما يُحيي الأرض الميتة بالمطر كذلك يُحيي الموتى يوم القيامة، فينزل الله عز وجل مطرًا مثل مني الرجال فينبتون كما تنبت البقلة.

﴿ وَهُوَ ﴾ أي: الله عز وجل: ﴿ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ ﴾ جمع ريح، ﴿ بُشْرًا ﴾ وفي قراءة (نُشُرًا) أي: تُبشر بالخير والرحمة، ﴿ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ المطر، ﴿ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ ﴾ **حملت**، ﴿سَحَابًا ثِقَالًا ﴾ مليء بالماء، ﴿ سُقْنَاهُ ﴾ أي: السحاب، ﴿ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ ﴾ يابس أصابه القحط، ﴿ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ ﴾ المطر، ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ التي تنبت في تلك الأرض، ﴿ كَذَلِكَ﴾ **كما نحي الأرض ونخرج النبات**، ﴿نُخْرِجُ الْمَوْتَى ﴾ من قبورهم يوم القيامة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ **تتعظون**.

الآية الثانية:

٢٨- قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾[الأعراف:١٧٦-١٧٧].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله للعالِم يترك العمل بالعلم، ولطالب العلم الذي يعرف السنة ثم يتركها من أجل الدنيا، مثله الله بـأخس الحيوان، فالله عز وجل جعل العالِم الذي هو في أعلى المراتب وأزكى المطالب إذا لم يكن عاملًا بعلمه كالكلب؛ لأن الكلب كما سيأتي على حال لا يتغير في حال الشدة وحال الرخاء، في حال السلامة والجري.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ﴾ أي: العالِم، ﴿ بِهَا ﴾بالعلم الذي حصله وحفظه، ﴿ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ﴾ اطمأن وركن، ﴿ إِلَى الأَرْضِ ﴾أي: طَمِعَ في الدنيا وزهد في الآخرة، ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ فترك العمل بالعلم واتبع الهوى، ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ ﴾ الحيوان البهيم الحقير، ﴿ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ ﴾ إن تجري خلفه وتُطارده تجده يلهث ويُخرج لسانه ويشفط الهواء وحاله متعب، ﴿ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾ يلهث وهو جالس بدون أن تفعل له شيئًا، فهذا مثل العالِم إذا أخلد إلى الأرض

وصار طمعه في الدنيا يلهث في الحالين؛ لأنه ترك الكرامة وأراد المهانة، ﴿ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ **الكفار وهكذا علماء السوء**، وقد ألف السيوطي كتابًا "**حُكم من أخلد إلى الأرض**"، ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ ﴾ **مثل هذا وغيره**، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ **فيتعظون وينزجرون**.

﴿ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾: **ساء المثل مثلهم**، المؤمن مثله كالنور، كالنخلة، كالماء الجاري النافع، وهذا مثله كالكلب، والحمار، والظُلمة .

فتعقل بارك الله فيك لمثل هذه الأمثال، واحذر أن تكون من هذه الأصناف التي لها مثل السوء، والله لو قيل لأحدنا: أتحب أن يُقال لك كلب لرفض، فكيف يتشبه بالكلاب أخس الحيوان في أخلاقها، وشأنها وخلودها إلى الأرض؟!

الآية الثالثة:

٢٩- قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[الأعراف:١٧٩].

الشرح:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا ﴾ أي: **خلقنا**، ﴿ لِجَهَنَّمَ ﴾ **النار**، وهو ثاني اسم من أسماء النار يتكرر كثيرًا في القرآن، ﴿ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ﴾ كما في حديث أبي

سعيد رضي الله عنه: «يَقُولُ اللهُ لِآدَمَ: يَا آدَمَ قُمْ فَابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ قَالَ: يَا رَبِّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ إِلَى النَّارِ وَوَاحِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ» أخرجه البخاري(٦٥٣٠) ومسلم (٢٢٢) .

وشأن هؤلاء: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ ﴾ **تنبض وتضخ**، وربما يعقلون بها صناعة السيارات والقطارات والطائرات وكثيرًا من شؤون معايشهم كما قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم:٧]، ﴿ لا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ **الحق الذي أوحاه الله وأنزله**، ﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ ﴾ **مُبصرة للسماوات والنجوم والأرَضين والأنهار والأشجار**، ﴿ لا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ **الحق والهدى**، ﴿ وَلَهُمْ آذَانٌ ﴾ **يسمعون بها المسموعات الحسية لكن**: ﴿ لا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ **الحُجج النبوية والأدلة القرآنية، فصارت حواسهم معطلة في جانب الدين لا قلوب تعقل، ولا أعين تبصر، ولا آذان تسمع**، ﴿ أُوْلَئِكَ ﴾ **الذين تقدم ذِكر وصفهم**، ﴿ كَالأَنْعَامِ ﴾ **الدواب البهيمةُ من الإبل والبقر والغنم**، ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ **لأن الأنعام غير مُكلفة وهؤلاء قد كُلِفوا**، وجعل الله عز وجل لهم أسماعًا وأبصارًا وأفئدة فما أغنت عنهم شيئًا، ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ عن دين رب العالمين.

وبهذا تعلم أن الكفار شر من الدواب كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾[البينة:٦].

سورة الأنفال

الآية الأولى:

٣٠- قال تعالى: ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾[الأنفال:٦].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله عز وجل للمسلمين في يوم بدر؛ حيث طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم الخروج، وكان المؤمل أن يتلقوا القافلة، وأن يأخذوا ما معها من الأموال تعويضًا عن الأموال التي أخذتها عليهم قُريش؛ لكن شاء الله ألا تكون القافلة وتكون الحرب، فعند ذلك وقعت المجادلة بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم على أن يرجعوا، والنبي صلى الله عليه وسلم عزمَ المُضيَّ، فكان الحال: ﴿ يُجَادِلُونَكَ﴾ يا محمد، ﴿ فِي الْحَقِّ﴾ في قتال الكفار ﴿ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾ أي: أنه سيكون بين المسلمين والكافرين قتال وهم فيه هذه المجادلة، ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ ﴾ يعني مثل عظيم، انظر لَمَّا يُساق الإنسان إلى الموت تفتر أعضاؤه وحواسه ويعجز عن الكلام وربما يعجز عن الفِعال؛ لأن طبيعة الإنسان إذا استقين الموت يعجز ويضعف، ﴿ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ إلى الموت.

ومع ذلك: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ

الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾[الأنفال:٧-٨]، فالله عز وجل جعل القتال في بدر؛ لحكمة علمها وخير أراده.

سورة التوبة

الآية الأولى:

٣١- قال تعالى: ﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[التوبة:٩].

الشرح:

قد تقدم مثيلها كثيرًا: ﴿ اشْتَرَوْا ﴾ **اعتاضوا** ﴿ بِآيَاتِ اللهِ ﴾ **القرآن** من أن الله عز وجل ضَرب مثلًا للكفار الذين باعوا الآخرة بالدنيا بمثل المشتري الذي يعتاض بآيات الله البينات العظيمات: ﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ مالًا يسيرًا حقيرًا، وأيضًا: ﴿ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ عن طريق الهُدى والنور، ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾**وعن** أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا» أخرجه مسلم (١١٨).

الآية الثانية:

٣٢- قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ * أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى

تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[التوبة:١٠٧-١٠٩].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله لأصحاب مسجد الضرار كأنهم بنوا مسجدهم على شفا جرف مهتري يتساقط صخوره وترابه، وإذا حفرت ما تجد أساسًا، يعرف هذا من يتعنى العمل في الأرض، فهذا مسجد الضِرار الذي بُنيَّ إرصادًا وكُفرًا وتفريقًا للمؤمنين، و يحلفون كذبًا: ﴿ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى ﴾ وكان بناء هذا المسجد قبل غزوة تبوك، ووعدهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يُصلي فيه بعد غزوة تبوك، قالوا: يا رسول الله بنيناه للشيخ الكبير والشيبة الهَرِم يُصلون فيه في الليلة الباردة، لكن عَلِمَ الله قصدهم.

فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا ﴾ أي: بنوا مسجدًا للمضارة، ﴿ وَكُفْرًا ﴾ لإشاعة الكفر، ﴿ وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ لأن مسجد قباء قد ضم المؤمنين، ﴿ وَإِرْصَادًا ﴾ ترقبًا، وانتظارًا، وإعدادًا، ﴿ لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ من الكفار و المنافقين يدخلونه ويتمالؤون فيه، ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أن يبنوا المسجد، ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ ﴾ ظاهرًا: ﴿ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى ﴾ الإحسان، ﴿ وَاللهُ يَشْهَدُ ﴾ يخبر ويعلم ﴿ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي: في قولهم: ﴿ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى ﴾.

﴿لا تَقُمْ﴾ يا محمد، ﴿فِيهِ﴾ في مسجد الضرار، ﴿أَبَدًا﴾ وبهذا يُستدل على أن أماكن الزور لا يُصلى فيها ولا تُشهد، ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ وهو مسجد قُباء ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم فكلاهما أُسس على التقوى، ﴿ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾ أولى وأحرى أن تُصلي فيه؛ إذ أن ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ﴾ كانوا يستنجون بالماء، وعادة العرب: أنهم يستنجون بالحجارة؛ فلذلك امتدح الله أهل قُباء: أنهم يستنجون بالماء، فلك أن تستنجي بالحجارة، أو تستنجي بالماء، أو تجمع بين الحجارة والماء، كمن كان في غير البُنيان فلا بأس أن يستنجي بالحجارة والماء؛ فالحجر يُزيل العين والماء يُزيل الأثر فتقع النظافة ويسلم الإنسان من مس النجاسة؛ لكن إذا كان الحال كما هو حال الناس الآن قد يتعذر وجود الأحجار، ﴿ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ من الكفر والنجاسة، وفيه إثبات صفة المحبة لله عز وجل وهي من الصفات الفعلية .

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ ﴾ وهو مسجد قُباء ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم، ﴿ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ﴾ وهو مسجد الضِرار، ﴿ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ لا يوفق الكافرين.

الآية الثالثة:

٣٣- قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ

وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[التوبة:١١١-١١٢].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله فيما يتعلق من البيع والشراء، وقد عُلِمَ أن هذه المعاوضة معنوية لا حسية.

﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي: يُسلمهم من عذابه وبطشه وعقابه، ﴿ وَ ﴾ اشترى أيضًا: ﴿ أَمْوَالَهُمْ ﴾، والقيمة لهذه الصفقة: ﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ يتنعمون فيها ﴿ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[آل عمران:١٣٣]، وشأن هؤلاء المؤمنين أنهم: ﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ لإعلاء كلمة الله، ﴿ فَيَقْتُلُونَ ﴾ المُخالفين لدين الله عز وجل، ﴿ وَيُقْتَلُونَ ﴾ يقتلهم الكفار فيكونون شهداء، ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ ﴾ الكتاب الذي أنزل على موسى عليه السلام ﴿ وَالإِنجِيلِ ﴾ الكتاب الذي أنزل على عيسى عليه السلام ﴿وَالْقُرْآنِ ﴾ الكتاب الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ،ففيهما جميعًا أن الله قضى بإكرام المؤمنين ،وإعزازهم ورفع درجاتهم، ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ ﴾؟ لا أحد، ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا ﴾ يا معاشر المسلمين، ﴿ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ﴾ ذُكِرَ بيع؛ لأن فيه مُعاوضة، والمعاوضة معنوية لا حسية ومع ذلك يُقال: فلان باع نفسه من

الله فعن أبي مالك الأشعري رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «وَكُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا» أخرجه مسلم (٢٢٣)﴿ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

ومن هؤلاء الذين اشتروا أنفسهم وباعوها من الله ويكون ثمن ذلك الجنة ، ﴿ التَّائِبُونَ ﴾ العائدون من ذنوبهم ومعاصيهم، ﴿ الْعَابِدُونَ ﴾ الموحدون لله، ﴿ الْحَامِدُونَ ﴾ الذين يذكرون الله عز وجل على عظيم نعمه ومِننهِ، ﴿ السَّائِحُونَ ﴾ الصائمون، وقيل: طُلاب العلم، ﴿ الرَّاكِعُونَ ﴾ المُصلون، ﴿ السَّاجِدُونَ ﴾ المُصلون، وإنما ذكر هاذين الوصفين؛ لأنهما أشهر أركان الصلاة، ﴿ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ الحاثون والمرغبون بالتوحيد فما دونه، من الطاعات و المبرات ﴿ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ المانعون من الشرك فما دونه، من المعاصي والسيئات ﴿ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ ﴾ بحفظ فروجهم وحفظ أيديهم وأعينهم وغير ذلك، فحدود الله محارمه يجتنبونها رجاءً في ثواب الله وخشيةً من عذابه وعقابه، ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بأن لهم من الله عز وجل الفضل العظيم في الدنيا والآخرة.

سورة يونس

الآية الأولى:

٣٤- قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[يونس:٢٤].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله عز وجل للحياة الدنيا وزوالها مُرغبًا في الآخرة وبقائها، فقال: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يا معاشر الناس في عدم استقرارها وعدم ثباتها وبقائها: ﴿ كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ مطر غزير، ﴿ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ ﴾ في التربة، ﴿ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ ﴾ مثل العنب والنخل والحبوب والقضب والزيتون وغير ذلك، مما ذكره الله عز وجل: ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾[عبس:٢٧-٣١]، ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ ﴾ بالخضرة والبهاء والثمرة، ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا ﴾ استقين أهلها أنهم سيحصدونها وستكون لهم الأموال الكثيرة والخيرات الوفيرة؛ لكن أتاها أمر الله: ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا﴾ بزولها، ﴿ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴾ من الريح

والقحط، أو الضريب فضرب ثمرتها وأذهب بهاءها، فهكذا بينما الإنسان في الدنيا يتنعم من خيراتها ويرفل في ملذاتها يأتيه الموت فيصبح كأمس الدابر.

فهذا مثل ضربه الله للحياة الدنيا بالأرض التي تُزرع والمزارع التي تُسقى، بينما هي خضراء تُصبح قاحلة لا شيء فيها، وبينما الإنسان بقوته وجبروته وذهابه وإيابه وإذا به يُصبح خامدًا، ﴿ فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا ﴾ أي: محصودة مطروحة في الأرض، ﴿ كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ ﴾ كأن لم تكن في الأمس خضراء بهية، ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ يتعظون، فهذا مثل عظيم يجعلك تزهد في هذه الدنيا وفيما فيها: ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾[الضحى:٤-٥].

الآية الثانية:

٣٥- قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[يونس:٢٧].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله عز وجل لأصحاب الأعمال المخالفة لدين الله عز وجل لا سيما الشركيات، والبدع والخرافات .

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ الكفريات والشركيات وما إليها من البدع والخرافات، ﴿ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ بخلاف الحسنة فإنها تُضاعف إلى سبعمائة ضعف، وقد تقدم حديث ابن عباس رضى الله عنه في الصحيحين في بيان الحسنات والسيئات، وما يتعلق بمضاعفة الحسنات، ﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ هوان؛ بسبب المعاصي كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ ﴾[المجادلة:٢٠]، وإن رَكِبوا أحسن المراكب، ولَبِسوا أحسن الملابس يأبى الله إلا أن تُلازمهم ذِلة الكفر والشرك والبدعة والمعصية، ﴿ مَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ ما لهم من مُنقذ وكما قيل: (أين المفر والإله الطالبُ؟)، ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾[الذاريات:٥٠]، ﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ﴾ يعني حالهم: كمن غُطِيَّ وجهه بقطع الليل المُظلم فصار أسودًا من شدة ما أصابه من الهم والغيض وسوء الحال وظُلمة الليل، وهؤلاء بسبب الذل التي وصلوا فيها صار حالهم كهذا الحال المُزري: وجوههم مسودة مكفهرة مُظلمة لا تُبصر حقًا ولا تأخذه ولا تجتنب باطلًا، ﴿ أُوْلَئِكَ ﴾ الذين تقدم وصفهم: ﴿ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ومنها لا يخرجون، نسأل الله السلامة والعافية.

سورة هود

الآية الأولى:

٣٦- قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * أُوْلَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾[هود:١٩-٢٤].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله عز وجل للمؤمنين والكفار، والأبرار والفجار.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ عن الإسلام الحق، ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ غير مستقيمة، ﴿ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ جاحدون لا يؤمنون بالبعث والنشور.

﴿ أُوْلَئِكَ ﴾ الذين تقدم وصفهم، ﴿ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ ﴾ سابقين: ﴿ فِي الأَرْضِ ﴾ بل يُدركهم الله ويُصيبهم بذنوبهم، ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ ينصرونهم ويحفظونهم، بل الواقع: ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ﴾

يوم القيامة، ومن ذلك اليوم ﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾ **لأن الله ختم على قلوبهم بسبب سوء صنيعهم.**

﴿ أُوْلَئِكَ ﴾ **الذين تقدم ذِكرهم،** ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ **خسارة ما بعدها،** ففي الدنيا لو خسرت شيئًا من المال يوشك أن تعمل وتسترده، أو خسرت شيئًا من الأولاد يوشك أن تتزوج ويُخلف الله بغيره، أو خسرت الزوجة يوشك أن تتزوج غيرها، لكن أن تخسر نفسك، و تُصبح من أهل النار؛ فهذه خسارة عظيمة لا يستطيع الكافر أن ينفك منها كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾[الكهف:١٠٣-١٠٤]، ﴿وَضَلَّ﴾ **هلك وبَعُد وغاب،** ﴿ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ **من الكذب والزور،** ﴿لا جَرَمَ﴾ **حقًا،** ﴿ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ ﴾ **الخسارة العظيمة.**

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ وحدوه والتزموا الطاعات والقُربات، ﴿ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ ﴾ ساروا إلى ربهم مخبتين مسرعين يُبادرون إلى الخيرات ملتزمين قوله تعالى ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٣] ،﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[البقرة:١٤٨].

﴿ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ، فأصحاب النار فيها خالدون، وأصحاب الجنة فيها خالدون، والفرق بينهما في الدنيا: بالإيمان والعمل الصالح.

﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ ﴾ المؤمن والكافر: ﴿ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ ﴾ وهذا مثل الكفار عموا عن بصر الحق وصُموا عن سماعه، ﴿ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ﴾ مثل المؤمنين أبصروا الحق وأخذوا به، وسمعوا الحق وانقادوا له، ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ لا يستوون، عند جماهير العقلاء: أن البصير أكمل من الأعمى، وأن السميع أكمل من الأصم، فهكذا المؤمن أكمل من الكافر، ﴿ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ تتعظون.

فأين أصحاب العقول حتى ينظر أحدهم أين يضع نفسه مع أصحاب العمى والصمم أم مع أصحاب البصر والسمع، فالإنسان يختار لنفسه كما قال تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[الكهف:٢٩]، ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[الإنسان:٣]، ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾[البلد:١٠].

أمثال تقشعر معها الأبشار والجلود؛ ﴿ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[ق:٣٧]، وليس الحال أنه أعمى وانتهى الأمر، أو أصم وانتهى الأمر، بل فيما بعد ذلك، هذا العمى والصمم يورثه خزي الدنيا والآخرة كما أخبر الله عز وجل: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾[الإسراء:٩٧]، وفي النار يُخلدون، كما أن البصيرة بالحق والسماع له يُورثك الصلاح في الدنيا والآخرة.

سورة الرعد

الآية الأولى:

٣٧- قال تعالى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[الرعد:٦].

الشرح:

يقول تعالى عن الكفار: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ ﴾ يا محمد، ﴿ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ بالعذاب كما قال تعالى:﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾[المعارج:١]، ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾[النبأ:١-٣]، ﴿قَبْلَ﴾ طلب، ﴿الْحَسَنَةِ ﴾ الخير والرزق الحسن، ﴿ وَقَدْ خَلَتْ ﴾ ولت وذهبت، ﴿مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ ﴾ الأمثال الكثيرة في تدمير الله عز وجل على الكافرين وفي حفظ الله للمؤمنين، كما قال تعالى:﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ﴾[غافر: ٢١] وقال تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[العنكبوت:٤٠]

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ تجاوز، وعفو، وإمهال،﴿ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ﴾مع كفرهم وشركهم ومعاصيهم، ولو يؤاخذهم ويُعاجلهم بالعقوبة لأهلكهم، كما قال تعالى﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾[يس: ٤٥]

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ العقوبة والأخذ للمخالفين، وهذا كقوله: ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾[غافر:٣].

فعلى الإنسان أن يستفيد من هذه الأمثال في إهلاك الله للمبطلين وفي إعزاز الله للمؤمنين؛ لأن الله ما ضرب الأمثال إلا للعمل بها.

الآية الثانية:

٣٨- قال تعالى: ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ ﴾[الرعد:١٤].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله لبيان حال المشرك، مع معبوده العاجز الناقص.

﴿ لَهُ ﴾ لله عز وجل: ﴿ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾ وهي التوحيد، "فَهُوَ أَهْلٌ أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ، وَيُدْعَى وَحْدَهُ، وَيُقْصَدَ وَيُشْكَرَ وَيُحْمَدَ، وَيُحَبَّ وَيُرْجَى وَيُخَافَ، وَيُتَوَكَّلَ

عَلَيْهِ، وَيُسْتَعَانَ بِهِ، وَيُسْتَجَارَ بِهِ، وَيُلْجَأَ إِلَيْهِ، وَيُصْمَدَ إِلَيْهِ. فَتَكُونُ الدَّعْوَةُ الْإِلَهِيَّةُ الْحُقُّ لَهُ وَحْدَهُ "[1].

﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ من الأصنام والأوثان، ﴿ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ ﴾ أي: لا يستطيعون أن يستجيبوا للكافرين طلبًا، ولا يدفعون عنهم ضرًا ولا يجلبون لهم نفعًا وإن قَلَّ أو صَغُرَ، كما قال تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾وحالهم معها: ﴿ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ ﴾ كرجل في أعلى البئر يبسط كفيه إلى الماء ليصعد ويشرب فلن يصل إليه الماء، بينما لو أخذ دلوًا وملأه لشرب، فهكذا لو أخذ الأسباب الشرعية في التوحيد ودعا الله عز وجل لاستجاب له دعوته وحقق له رغبته، لكن يعبد الأصنام ويدعوها من دون الله فلا تستجيب له، ﴿ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾ لا يُمكن أن يطلع الماء بهذا السبيل وهذا الحال، ﴿ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ لأصنامهم ومعبودتهم من دون الله ﴿ إِلَّا فِي ضَلالٍ ﴾ هلاك.

الآية الثالثة:

٣٩- قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ

[1] "مدارج السالكين" (٢/ ٣١)

هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لله شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾[الرعد:١٦].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله عز وجل للمؤمنين والكافرين حيث مثل المؤمن بالمبصر والكافر بالأعمى.

﴿ قُلْ ﴾لهم يا محمد: ﴿ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ثم أجبهم بقولك: ﴿ قُلِ اللهُ ﴾ رَبُّ السماوات والأرض وخالقهما ومدبرهما، ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد: ﴿ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ من أصنام وأوثان تعبدونهم وترجونهم، وحالهم أنهم: ﴿ لا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا ﴾ فضلًا عن نفع غيرهم وضره، ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى ﴾ الكافر، ﴿ وَالْبَصِيرُ ﴾ المسلم، ﴿ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ ﴾ الكفر والنفاق والزندقة، ﴿ وَالنُّورُ ﴾ التوحيد والإيمان، فكما لا يستوي الأعمى والبصير ولا الظُلمات ولا النور فكذلك لا يستوي الأبرار والفجار، والمؤمنون والكفار.

وفي حديث سهل بن سعد رضي الله عنه: «مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟» قَالُوا: رَأْيَكَ فِي هَذَا، نَقُولُ: هَذَا مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ، أَنْ يُخَطَّبَ، وَإِنْ شَفَعَ، أَنْ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ، أَنْ يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ، فَسَكَتَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم، وَمَرَّ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟»،

قَالُوا: نَقُولُ، وَاللهَّ يَا رَسُولَ اللهَّ هَذَا مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ، لَمْ يُنْكَحْ، وَإِنْ شَفَعَ، لَا يُشَفَّعْ، وَإِنْ قَالَ، لَا يُسْمَعْ لِقَوْلِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «لَهَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا» أخرجه البخاري (٦٤٤٧).

ثم قال الله تعالى: ﴿ أَمْ﴾ بل، ﴿جَعَلُوا ﴾ صيروا: ﴿ لله شُرَكَاءَ ﴾ مع أنه لا شريك له، ﴿ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ ﴾ وليس لهم خلق، ﴿ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾.

قال ابن القيم رحمه الله(الصواعق المرسلة ٢/ ٤٦٦): "فاحتج على تفرده بالإلهية بتفرده بالخلق وعلى بطلان إلهية ما سواه بعجزهم عن الخلق "[(١)] كما قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾[الطور:٣٥-٣٦]" اهـ.

الآية الرابعة :

٤٠- قال تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ ﴾[الرعد:١٧].

الشرح:

---

(١)

قال ابن القيم رحمه الله في **أعلام الموقعين** (١/ ١١٧-١١٨):

"وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ الْمَثَلَيْنِ الْمَائِيَّ وَالنَّارِيَّ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ، وَلَكِنْ فِي حَقِّ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿**أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ**﴾[الرعد: ١٧] شَبَّهَ الْوَحْيَ الَّذِي أَنْزَلَهُ لِحَيَاةِ الْقُلُوبِ وَالْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ بِالْمَاءِ الَّذِي أَنْزَلَهُ لِحَيَاةِ الْأَرْضِ بِالنَّبَاتِ، وَشَبَّهَ الْقُلُوبَ بِالْأَوْدِيَةِ، فَقَلْبٌ كَبِيرٌ يَسَعُ عِلْمًا عَظِيمًا كَوَادٍ كَبِيرٍ يَسَعُ مَاءً كَثِيرًا وَقَلْبٌ صَغِيرٌ إِنَّمَا يَسَعُ يَحْسِبُهُ كَالْوَادِي الصَّغِيرِ، فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا، وَاحْتَمَلَتْ قُلُوبٌ مِنْ الْهُدَى وَالْعَمَلِ بِقَدَرِهَا؛ وَكَمَا أَنَّ السَّيْلَ إذَا خَالَطَ الْأَرْضَ وَمَرَّ عَلَيْهَا احْتَمَلَ غُثَاءً وَزَبَدًا فَكَذَلِكَ الْهُدَى وَالْعِلْمُ إذَا خَالَطَ الْقُلُوبَ أَثَارَ مَا فِيهَا مِنْ الشَّهَوَاتِ وَالشُّبُهَاتِ لِيُقْلِعَهَا وَيُذْهِبَهَا كَمَا يُثِيرُ الدَّوَاءُ وَقْتَ شُرْبِهِ مِنْ الْبَدَنِ أَخْلَاطَهُ فَيَتَكَدَّرُ بِهَا شَارِبُهُ، وَهِيَ مِنْ تَمَامِ نَفْعِ الدَّوَاءِ، فَإِنَّهُ أَثَارَهَا لِيُذْهِبَ بِهَا، فَإِنَّهُ لَا يُجَامِعُهَا وَلَا يُشَارِكُهَا؛ وَهَكَذَا يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ، ثُمَّ ذَكَرَ الْمَثَلَ النَّارِيَّ فَقَالَ: ﴿**وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ**﴾[الرعد: ١٧] وَهُوَ الْخَبَثُ الَّذِي يَخْرُجُ عِنْدَ سَبْكِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالنُّحَاسِ وَالْحَدِيدِ فَتُخْرِجُهُ النَّارُ وَتُمَيِّزُهُ وَتَفْصِلُهُ عَنْ الْجَوْهَرِ الَّذِي يُنْتَفَعُ بِهِ فَيُرْمَى وَيُطْرَحُ وَيَذْهَبُ جُفَاءً؛ فَكَذَلِكَ الشَّهَوَاتُ وَالشُّبُهَاتُ يَرْمِيهَا قَلْبُ الْمُؤْمِنِ وَيَطْرَحُهَا وَيَجْفُوهَا كَمَا يَطْرَحُ السَّيْلُ وَالنَّارُ ذَلِكَ الزَّبَدَ وَالْغُثَاءَ

وَالْخَبَثَ، وَيَسْتَقِرُّ فِي قَرَارِ الْوَادِي الْمَاءُ الصَّافِي الَّذِي يَسْتَقِي مِنْهُ النَّاسُ وَيَزْرَعُونَ وَيَسْقُونَ أَنْعَامَهُمْ، كَذَلِكَ يَسْتَقِرُّ فِي قَرَارِ الْقَلْبِ وَجَذْرِهِ الْإِيمَانُ الْخَالِصُ الصَّافِي الَّذِي يَنْفَعُ صَاحِبَهُ وَيَنْتَفِعُ بِهِ غَيْرُهُ؛ وَمَنْ لَمْ يَفْقَهْ هَذَيْنِ الْمَثَلَيْنِ وَلَمْ يَتَدَبَّرْهُمَا وَيَعْرِفْ مَا يُرَادُ مِنْهُمَا فَلَيْسَ مِنْ أَهْلِهِمَا، وَاللَّهُ الْمُوَفِّقُ" اهـ.

﴿أَنزَلَ﴾ الله عز وجل، ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ من السحاب، ﴿مَاءً﴾ مطرًا، ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ كل وادي بقدر سعته، ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ﴾ الماء الجاري في الأودية، ﴿زَبَدًا﴾ غثاءً ﴿رَابِيًا﴾ وكلما كثر الماء كثر الزبد، فهذا المثل الأول وقد تقدم أنه مثل القرآن وحال الناس معه، ﴿وَ﴾ المثل الثاني في، ﴿مِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ﴾ من الفلزات الذهب والفضة، والحديد والنحاس، ﴿فِي النَّارِ﴾ الكير الذي يتخذه الحداد، ويفعلون ذلك، ﴿ابْتِغَاءَ﴾ طلب، ﴿حِلْيَةٍ﴾ لصنع الحلية وما تتحلى به النساء، ﴿أَوْ مَتَاعٍ﴾ كذلك مثل الفأس ونحوه، فيدخرونه: ﴿زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ مثل الزبد الأول، فيوقدون النار ويضعون عليها الحديد أو الذهب أو النحاس أو القصدير فما كان من الزبد يذهب فلا يُنتفع به في شيء، وما كان من الفلز المعدن الطيب يبقى ثابتًا يُشكلونه كيف شاءوا، فضرب الله عز وجل مثلًا: بالماء وما يحمل معه من الزبد، فالماء: هو القرآن والخير والهدى والنور والضياء والعلم النافع، والزبد: هوالشرك، الجهل والرأي والقياس الفاسد وغير ذلك، وهكذا ما يوقدون عليه في النار، فالنار يُختبر بها الفلز، فما كان من الفلز الأصلي يبقى ثابتًا ويستفيدون منه في الحلية والمتاع، وأما الزبد فيذهب، كما ذهب زبد الماء.

﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴾ فيتعظ من اتعظ ويعرض من أعرض، كما قال تعالى: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[الإسراء:٨١]، ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ﴾ هاهنا وهاهنا يتفرق ولا ينتفع به، ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ ﴾ من الماء، ﴿ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ ﴾.

فعلى المسلم أن يكون كالماء نفعًا ومنتفعًا، ولا يكون كالزبد فإن الزبد لا ينفع ولا يُنتفع به ولا يُفرح به، وحتى الأرض التي يدخل فيها الزبد لا تصلح للزراعة ، حتى البحر يفسد بالزبد.

الآية الخامسة :

٤١- قال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾[الرعد:١٩].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله عز وجل للمعرض عن الكتاب والسنة بالأعمى الذي لا يُبصر النور، والعمى هذا معنوي إذ أنه لم يُبصر نور القرآن ونور السنة.

﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ ﴾ويؤمن، ﴿ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ﴾ من القرآن، و الوحي من المؤمنين، والموحدين والطائعين، ﴿ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ عن كتاب ربه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وكان من الكافرين والمنافقين، والمعنى: أنهم لا يستوون، فكما أن الأعمى لا يبصر الحسيات، وقد يقع في الحفر، ويمسك الهوام

كذلك الكافر يقع في المهلكات المعنويات؛ بسبب عمى قلبه كما قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ يتعظ، ﴿ أُوْلُوا﴾ أصحاب، ﴿الأَلْبَابِ﴾ العقول السليمة.

الآية السادسة:

٤٢- قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لله الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ إِنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾[الرعد:٣١].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله عز وجل لعظمة شأن القرآن في نفوس المؤمنين، وتأثيره البليغ في قلوبهم ،وإقامة الحجة عليهم .

فيقول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ﴾ وجد، ﴿أَنَّ قُرْآنًا﴾ يُتلى و، ﴿ سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴾ العاليات الشامخات الثابتات عن أماكنها، ﴿ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ ﴾ الصلبة وأصبحت أجزاءً، ﴿ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى ﴾ الذين قد تناثرت أجزاؤهم وتبددت أعضاؤهم، لكان هذا القرآن الذي أُنزل على محمد عليه الصلاة والسلام، كما قال الله عز وجل: ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الحشر:٢١].

﴿ بَلْ لله الأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ يهدي من يشاء ممن علمه أهلًا للهداية فضلًا منه، ويُضل من يشاء ممن علمه أهلًا للغواية عدلًا منه، ﴿ أَفَلَمْ يَيْئَسِ ﴾ ألم يعلم: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ لطاعته وعبادته، لكن له الحكمة في عدم ذلك، كما قال تعالى، ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴾[هود:١١٨-١١٩]، ﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ﴾ مصيبة وهول، ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ القارعة، والهول والمصائب ﴿ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ ﴾ في البلدان المجاورة، لعلهم يرجعون أو ينزجرون؛ لكنهم لم يستجيبوا لذلك، ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ الله ﴾ الذي وعد بإهلاك أعدائه ونصرة أوليائه، ﴿ إِنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ بل ما وعد به كان لكن كما قال ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾[الطارق:١٧].

الآية السابعة:

٤٣- قال تعالى: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾[الرعد:٣٥].

الشرح:

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ ﴾ قيل: صفة الجنة، وقيل: بأن مثل هذه الجنة مثل عظيم، ﴿ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ أي: تجري فيها الأنهار؛ لأنها ليست فيها أخاديد، أنهار الماء، واللبن، والعسل، والخمر، ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾ مستمر، كما قال

تعالى: ﴿ لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ ﴾[الواقعة:٣٣]، ﴿ وَظِلُّهَا ﴾ دائم لا حر فيه ولا قَرّ، ﴿تِلْكَ﴾ المثوبة، ﴿ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا ﴾ عاقبة الذين اتقوا، وجزاؤهم كما قال تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾[الحاقة:٢٤]، وقال:﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[الزخرف:٧٢]، ﴿ وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ جزاؤهم؛ بسبب إعراضهم وكفرهم، والله المستعان.

سورة إبراهيم

الآيـة الأولـى:

٤٤- قال تعالى: ﴿ الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾[إبراهيم:١].

الشرح:

هذا مثل ضربه لبيان أن الشرك والنفاق ظلمة لا يُهتدي فيها، وأن التوحيد والسنة نور يستضأُ به، ويستفيدون منه.

﴿الر﴾ من الأحرف المقطعة التي افتتحت بها السور، واختلف العلماء فيها، فقيل لامعنى لها، وقيل لها معنى يعلمه الله، وقيل بأنها أسماء السور، وقيل غير ذلك، والصحيح أنها لامعنى لها، ﴿كِتَابٌ﴾ أي: هذا القرآن،﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ فليس بمخلوق بل هو، ﴿ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾[فصلت:٢] تكلم به حقيقة، وسمعه منه جبريل عليه السلام ثم نزل به على محمد صلى عليه وسلم ﴿إِلَيْكَ﴾ إلى محمد صلى الله عليه وسلم،﴿لِتُخْرِجَ﴾ بحججه وأدلته،﴿ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ الشرك والنفاق وجهل: ﴿ إِلَى النُّورِ ﴾ التوحيد والسنة والعلم، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ القدرية والكونية، ﴿إِلَى صِرَاطِ﴾ طريق، ﴿ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ أي: صراط الله عز وجل، وهو الإسلام الحق.

الآية الثانية :

٤٥- قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[إبراهيم:٥].

الشرح:

وهذا المثل كسابقه.

﴿وَ﴾ الله: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى ﴾ ابن عمران عليه السلام: ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ التوراة، والمقصد من ذلك: ﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ ﴾ بني إسرائيل، ﴿ مِنَ الظُّلُمَاتِ ﴾ الشرك والعبودية، ﴿ إِلَى النُّورِ ﴾ التوحيد والطاعة، ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ ﴾ في إهلاك فرعون، وكيف أنجاهم، وسلمهم من الغرق في اليم، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ كثير الصبر كثير الشُكر

الآية الثالثة :

٤٦- قال تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ ﴾[إبراهيم:١٨].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله عز وجل لبيان فساد أعمال الكافرين، وما يلحقها من الفساد.

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ **واتخذوا الشيطان معبودًا وإلهًا،** ﴿ أَعْمَالُهُمْ ﴾ **الصالحات التي عملوها،** أما السيئات فهي باقية عليهم، ويحملونها يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[النحل:٢٥]، لكن هذه الأعمال الصالحة، إذا كان أحدهم ربما يعتق، ويتصدق، ويصل الرحم، ويُقرئ الضيف، ويصدق الحديث، تصير﴿ كَرَمَادٍ ﴾ **بقايا النار والحطب،** ﴿ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ **في يوم شديد الريح،** لا يبقى شيء من الرماد بل يتناثر، ويذهب ولا يستطيع أحد له جمعًا، فأعمال الكافرين مثلها، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣]، **مثل الغبار المتطاير في الهواء، وعَنْ عَائِشَةَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ:** «لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ» أخرجه مسلم(٢١٤)، والسبب في بطلان أعمالهم تخلف شرطا قبول العمل: الإخلاص لله عز وجل، والمتابعة لرسول صلى الله عليه وسلم، فأن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا صوابًا.

﴿ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ﴾ **لا يستطيعون له جمعًا ولا حِفظًا**، ﴿ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ ﴾ **الهلاك البعيد**؛ لأنه يودي بصاحبه إلى النار وبئس القرار.

ويدخل في مثل هذا المثل: الذين يعبدون المقبورين من دون الله، تجد أن أحدهم يُصلي، ويصوم، ويحج، ويعتمر، وربما بنى المساجد، واشترى المصاحف، وربما أطعم المساكين، لكنه يُنزل حاجته بغير الله كدعاء هود أو دعاء علي أو الحسن أو الحسين أو محمد أو فاطمة أو ما شاءوا من الأدعية التي يفعلونها، فأعمالهم: ﴿ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾[إبراهيم:١٨]، تذهب هباءً منثورًا؛ لأن الشرك مثل الحدث يبطل الصلاة.

فلو أن أحدهم صلى الصلاة كما صلى النبي صلى الله عليه وسلم لا يخرم عنه في حركة ولا سكنة إلا أنه صلاها بدون وضوء لغير ما عُذر، هل صلاته صحيحة أم باطلة؟ باطلة.

بإجماع من يفهم هذا الأمر: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ .. ﴾[المائدة:٦]، الآية، وعن أبي هريرة قال صلى الله عليه وسلم: «**لَا يَقْبَلُ اللهُ صَلَاةَ أَحَدِكُمْ إِذَا أَحْدَثَ حَتَّى يَتَوَضَّأَ**» أخرجه البخاري (٦٩٥٤) ومسلم (٢٢٤)، فهكذا من كان مُصليًا، صائمًا، منفقًا، صادقًا، باذلًا، معتمرًا، بانيًا إلى غير ذلك من الأمور لكن يدعو غير الله، ويذبح لغير الله، وينذر لغير الله، ويخاف من الشيطان أو من أعوانه كخوفه من الله خوف سِر، يخاف من المقبورين خوف سر،

يرجو المقبورين، يرجو غير الله رجاء عبادة، يُحب غير الله محبة عبادة فلا تنفعه أعماله.

وكثير من الناس لا يفقهون هذه المسألة، ويقولون: أنتم يا أهل السنة تُكفرون من يقول: "لا إله إلا الله"، ما كفرناهم نحن! كفرهم الله عز وجل وكفرهم رسوله صلى الله عليه وسلم، أبو بكر رضي الله عنه قاتل من فرق بين الصلاة والزكاة وهم يُصلون وقد أقروا بالحج والعُمرة وكل شيء إلا أنهم قالوا: ليس هناك زكاة، قال: **"وَاللهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ"** أخرجه البخاري(١٤٠٠) ومسلم (٢٠)، فدين الله متكامل لا يُقبل عمل إلا مع التوحيد كما قال تعالى﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧].

الآية الرابعة:

٤٧- قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾[إبراهيم:٢٤-٢٦].

الشرح:

هذان مثلان ضربهما الله عز وجل لكلمة التوحيد وكلمة الشرك، فمثل التوحيد الكلمة الطيبة بالنخلة الشجرة الطيبة المثمرة الثابتة المفيدة المستفيدة، حتى قال

النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ مَثَلَ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ النَّخْلَةِ» أخرجه البخاري (٢٢٠٩) ومسلم(٢٨١١) عن بن عمر رضى الله عنه ، قال العلماء: مثَّل النبي صلى الله عليه وسلم المؤمن بالنخلة؛ لأن النخلة يُستفاد من جميع شأنها: من جذعها، و ساقها، و ورقها، و ثمرها، من نواها،و يُستفاد منها معصورة، مشروبة ومأكولة إلى غير ذلك، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «بَيْتٌ لَيْسَ فِيهِ تَمْرٌ جِيَاعٌ أَهْلُهُ» أخرجه مسلم (٢٠٤٦) عن عائشة رضى الله عنها، فالمؤمن مثل النخلة، وكلمة الإخلاص، والتوحيد مثل النخلة ثابتة ثبوت الجبال الرواسي، فلو أتت الريح العظيمة، لا تسقُط لأن النخلة ثابتة باقية، ربما تلتوي وما زال ثمرها يؤتى به، و ربما تبقى الأرض يابسة سنين عديدة والنخلة خضراء، فكما تثمر النخلة الثمر تثمر هذه الكلمة العمل الصالح.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ "لا إله إلا الله"، ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ النخلة، ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ جذعها دخل في الأرض فثبتت به، ﴿ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ في العلو.

﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا﴾ ثمرها، ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ كل وقت، ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ الكوني القدري، ﴿ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ فلو خُيِّرَ بين نخلة، وبين الحنظلة لاختار النخلة، لكن لماذا لا يختار التوحيد ويترك الشرك؟! هذا دليل على أنه لم يأخذ بهذا المثل ولم يستفد منه.

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ الشرك، ﴿ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ الحنظلة، طعمها خبيث ولا نفع فيها، ﴿اجْتُثَّتْ﴾ قلعت، ﴿ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ ﴾ ربما الطفل الصغير يستطيع أن يقتلعها بسهولة ويبعجها من الأرض، ﴿ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ ما لها من ثبات، وأول ما يخف الماء في الأرض فإذا بها يابسة، فهي شجرة لا يُستفاد منها شيء حتى لو أتيت تُريد أن تطبخ بها ما تثبت في الطباخة، بينما جذع النخلة ربما أيام تبقى النار فيه، وإذا أردت أن تكون سقفًا للبيت كانت سقفًا للبيت، وإذا أردت أن تكون على البئر كانت على البئر، ففيها منافع كثيرة، بخلاف الحنظلة

قال ابن القيم رحمه الله في (إعلام الموقعين ١/ ١٣٣_١٣٥) :وفي هذا المثل من الأسرار والعلوم والمعارف ما يليق به، و يقتضيه علمُ الذي تكلم به وحكمته فمن ذلك أن الشجرة لا بد لها من عروق ،وساقٍ وفروع، وورق وثمر، فكذلك شجرة الإيمان والإسلام؛ ليطابق المُشَبَّه المشبَّه به؛ فعروقها العلم والمعرفة واليقين، وساقها الإخلاص، وفروعُها الأعمال، وثمرتُها ما توجبه الأعمال الصالحة من الآثار الحميدة والصِّفات الممدوحة والأخلاق الزكيَّة والسَّمْتِ الصالح والهَدْي والدَّلِّ المرضِيِّ، فيُستدل على غَرْسِ هذه الشجرة في القلب وثبوتها فيه بهذه الأمور، فإذا كان العلمُ صحيحًا مطابقًا لمعلومه الذي أنزل اللهَّ كتابه به، والاعتقادُ مطابقًا لما أخبر به عن نفسه وأخبرت به عنه رسُلُه، والإخلاصُ قائم في القلب، والأعمال موافقة للأمر، والهدْي والدَّلُّ والسَّمْت مُشَابه لهذه الأصول مناسبة لها، عُلِمَ أن شَجرةَ الإيمان في القلب أصلُها ثابت وفرعها في السماء، وإذا كان الأمر

بالعكس عُلِم أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة التي اجْتُثَّتْ من فوق الأرض ما لها من قَرار.

ومنها: أن الشجرة لا تَبْقَى حيةً إلا بمادة تَسْقيها وتُنْميها، فإذا قُطِعَ عنها السقي أوشَكَ أن تيبس، فهكذا شجرة الإسلام في القلب إنْ لم يتعاهَدْهَا صاحبُها بسَقْيِها كلَّ وقت بالعلم النافع والعمل الصالح والعَوْد بالتّذكُّرِ على التَّفكُّر والتَّفكُّر على التذَّكُّر، إلا أوشَكَ أن تَيْبس، وفي "مسند الإمام أحمد" من حديث أبي هريرة قال: قال رسول اللهَّ -صلى اللهَّ عليه وسلم-: "**إن الإيمان يَخْلَقُ في القلب كما يَخْلَقُ الثَّوبُ، فجدِّدُوا إيمانكم**" ، وبالجملة فالغَرْسُ إن لم يتعاهده صاحبه أوشَكَ أن يهلك، ومن هنا تعلم شدة حاجة العباد إلى ما أمر اللهَّ به من العبادات على تعاقب الأوقات وعظيم رحمته وتمام نعمته وإحسانه إلى عباده بأن وظَّفَها عليهم ، وجعلها مادةً لسَقْي غراس التوحيد الذي غَرَسَه في قلوبهم.

ومنها: أن الغرس والزرع النافع قد أجرى اللهَّ سبحانه العادةَ أنه لا بُدَّ أن يُخَالطه دَغَل ونَبْتٌ غريب ليس من جنسه، فإنْ تَعَاهده رَبُّه ونَقَّاه وقَلَعه كمل الغرس والزرع، واستوى، وتَمَّ نباتُه، وكان أوْفَرَ لثمرته، وأطيَبَ وأزكى، وإنْ تركه أوشَكَ أن يغلب على الغرس والزرع، ويكون الحكم له، أو يضعف الأصل ويجعل الثمرة ذميمة ناقصة بحسب كثرته وقلَّته، ومَنْ لم يكن له فِقْهُ نفسٍ في هذا ومعرفة به، فاته ربْحٌ كبير وهو لا يشعر؛ فالمؤمن دائمًا سعيُه في شيئين: سَقْي هذه

الشجرة، وتنقية ما حولها، فبسقيها تبقى وتدوم، وبتنقية ما حولها تكمل وتتم، واللهَّ المستعان وعليه التُّكْلَان. ولا حول ولا قوة إلا به].

فهذا بعض ما تَضَمَّنه هذا المثلُ العظيم الجليل من الأسرار والحِكم، ولعلها قَطْرة من بَحْرٍ بحسب أذهاننا الواقفة، وقلوبنا المخبطة ، وعلومنا القاصرة، وأعمالنا التي توجبُ التوبةَ والاستغفار، وإلا فلو طَهُرَتْ منا القلوب، وصفت الأذهانُ، وزكَتِ النفوسُ، وخَلُصت الأعمالُ، وتجرَّدت الهِمَم للتَلقِّي عن اللهَّ ورسوله؛ لشَاهَدْنَا من معاني كلام اللهَّ وأسراره وحِكَمه ما تضمحِلُّ عنده العلوم، وتتلاشى عنده معارفُ الحق، وبهذا تعرف قدرَ علوم الصحابة ومعارفهم رضي اللهَّ عنهم، وأنَّ التفاوت الذي بين علومهم وعلوم مَنْ بعدهم كالتفاوت الذي بينهم في الفضل، واللهَّ أعلم حيث يجعل مواقعَ فضله، ومَنْ يختصُّ برحمتهثم ذكر سبحانه مثل الكلمة الخبيثة (٤) فشبَّهها بالشَّجرة الخبيثة التي اجْتُثَّتْ من فوق الأرض ما لها من قرار ، فلا عِرْقٌ ثابت، ولا فَرعْ عالٍ، ولا ثمرة زاكية، ولا ظل، ولا جَنًى، ولا ساقٌ قائم، ولا عرق في الأرض ثابت، فلا أسفلها مُغْدِق، ولا أعلاها مُوْنِق، ولا جَنَى لها، ولا تعلوا بل تُعْلى.

واذا تأمل اللبيبُ أكثر كلام هذا الخلق في خطابهم وكُتبهم وجَدَه كذلك؛ فالخسران كل الخسران الوقوفُ معه والاشتغال به عن أفضل الكلام وأنفعه.

قال الضحاك: ضرب اللهَّ مثلًا للكافر بشجرة اجْتُثَّتْ من فوق الأرض ما لها من قرار، يقول: ليس لها أصل ولا فرع، وليس لها ثمرة، ولا فيها منفعة ، كذلك

الكافر ليس يعمل خيرًا ولا يقوله، ولا يجعل اللهَّ فيه بركة ولا منفعة وقال ابن عباس: ومثلُ كلمةٍ خبيثة -وهي الشرك- كشجرة خبيثة، يعني: الكافر، قال: ﴿اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾، يقول: الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر ولا برهان، ولا يقبل اللهَّ مع الشرك عملًا ، فلا يُقبل عملُ المشرك، ولا يصعد إلى اللهَّ، فليس له أصل ثابت في الأرض ولا فرع في السماء؛ يقول: ليس له عمل صالح في الدنيا ولا في الآخرة.

وقال الربيع بن أنس: مثل الشجرة الخبيثة مثلُ الكافر، ليس لقوله ولا لعمله أصل ولا فرع، ولا يستقر قولُه ولا عملُه على الأرض ولا يصعد إلى السماء.

وقال سعيد، عن قتادة في هذه الآية: **إن رجلًا لَقِيَ رجلًا من أهل العلم فقال له: ما تقول في الكلمة الخبيثة؟ قال: لا أعلم لها في الأرض مستقرًا، ولا في السماء مَصْعدًا، إلا أن تلزم عُنُقَ صاحبها حتى يوافي[بها يوم القيامة.**

وقوله: ﴿اجْتُثَّتْ﴾ أي: استُؤْصِلَت من فوق الأرض، ثم أخبر سبحانه عن فضله وعَدْله في الفريقين، أصحاب الكلم الطيب والكلم الخبيث، فأخبر أنه يُثَبِّتُ الذين آمنوا بإيمانهم بالقول الثابت أحْوَجَ ما يكونون إليه في الدنيا والآخرة، وأنه يُضِل الظالمين وهم المشركون عن القول الثابت، فأضَلَّ هؤلاء -بعَدْله- لظُلْمهم ، وثَبَّتَ المؤمنين -بفضله- لإيمانهم.اهـ

الآية الخامسة :

٤٨- قال تعالى: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ * وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾[إبراهيم:٤٥-٤٦].

الشرح:

﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ أي: بإهلاكهم، منهم من دمر الله بالريح، ومنهم من دمره بالمطر، ومنهم من دمره بالصاعقة والزلزلة وغير ذلك، ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ ﴾ فهذه أمثال يضربها الله للناس لعلهم يتذكرون ويتفكرون فينزجرون عن المعاصي والسيئات أن تُصيبهم المُثلات.

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ ﴾ بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالإعراض عن ديننا، ﴿ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ ﴾ يطلع عليه ويُجازيهم بمكرهم كما قال تعالى: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ ﴾[الأنفال:٣٠]، ﴿ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ لشدته، ﴿ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ الرواسي عن أماكنها، لو كانت تزول لمكرهم، لكن مع ذلك سَلَّمَ الله أهل التوحيد والإخلاص من مكر الكافرين.

سورة النحل

الآيـة الأولـى:

٤٩- قال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلله الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[النحل:٦٠].

الـشرح:

﴿ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ ﴾ **الكُفار**، ﴿ مَثَلُ السَّوْءِ ﴾ **مثلهم الله عز وجل بالأنعام بل هم أضل، ومثلهم بالأصم والأعمى والأبكم**، وبغير ذلك من الأمثال التي تقدم شيء منها، ﴿ وَلله الْمَثَلُ الأَعْلَى ﴾ الوصف الأعلى، قيل: **"لا إله إلا الله"**، وقيل: **"الإخلاص"** ، وهذه الآية يُستدل بها على ما يُسمى بقياس الأولى، فكل كمال ثبت للمخلوق فالله أولى به، وكل نقص تنزه عن المخلوق فالله أولى أن يتنزه عنه، ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يُغلب، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ في أمره وقدره.

وهذه الآية من الآيات العظيمة التي فيها ذم الكفر والكافرين والشرك والمشركين؛ إذ أن الله عز وجل جعل لهم مثل السَوء، مثل الكلب، مثل الحمار، مثل الأنعام، مثل الجُعلان إلى غير ذلك من الأمثال، والعرب تأتي بالأمثال لبيان مدح أو ذم، وجعل لنفسه المثل من كل وجه فيُثبت له الأسماء الحسى والصفات العلى بعيدًا عن التمثيل والتعطيل بل هو سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير **قال ابن القيم** في (الصواعق المرسلة): فهاهنا أربعة أمور:

[**الأول**] ثبوت الصفات العليا لله سبحانه في نفس الأمر علمها العباد أو جهلوها وهذا معنى قول من فسره بالصفة.

الثاني: وجودها في العلم والتصور وهذا معنى قول من قال من السلف والخلف إنه ما في قلوب عابديه وذاكريه من معرفته وذكره ومحبته وإجلاله وتعظيمه وهذا الذي في قلوبهم من المثل الأعلى لا يشترك فيه غيره معه بل يختص به في قلوبهم كما اختص في ذاته وهذا معنى قول من قال من المفسرين أهل السماء يعظمونه ويحبونه ويعبدونه وأهل الأرض يعظمونه ويجلونه وإن أشرك به من أشرك وعصاه من عصاه وجحد صفاته من جحدها فكل أهل الأرض معظمون له مجلون له خاضعون لعظمته مستكينون لعزته وجبروته قال تعالى: {بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ} [البقرة١١٦] فلست تجد أحدا من أوليائه وأعدائه إلا والله أكبر في صدره وأكمل وأعظم من كل سواه .

الثالث: ذكر صفاته والخبر عنها وتنزيهها عن النقائص والعيوب والتمثيل.

الرابع: محبة الموصوف بها وتوحيده والإخلاص له والتوكل عليه والإنابة إليه وكلما كان الإيمان بالصفات أكمل كان هذا الحب والإخلاص أقوى فعبارات السلف تدور حول هذه المعاني الأربعة لا تتجاوزها وقد ضرب الله سبحانه مثل السوء للأصنام بأنها لا تخلق شيئا وهي مخلوقة ولا تملك لأنفسها ولا لعابديها ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا اهـ .

الآيـة الـثـانـيـة :

٥٠- قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾[النحل:٧٥].

الـشرح :

هذا مثل ضربه الله عز وجل لنفسه إذا أنه المالك المتصرف في كلِّ شيء وللأوثان التي هي مخلوقة عاجزة.

﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا ﴾ ؛ **لبيان حال المعبودات المربوبة العاجزة وهي الأصنام الأوثان،** ﴿ عَبْدًا مَمْلُوكًا لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ **عاجز لا يُقدم ولا يؤخر ولا يُطعم،** مثل هذا وجوده كعدمه لا خير فيه ولا مصلحة، فهل يستوي هذا العبد المملوك مع آخر: ﴿ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ﴾ **وهو طائع لسيده مُقبل على عبادة ربه مُصلح لنفسه؟** لا سواء عند جماهير العُقلاء بل بإجماع العُقلاء، ﴿ هَلْ يَسْتَوُونَ ﴾؟ لا يستوون، ﴿ الْحَمْدُ لله بَلْ أَكْثَرُهُمْ ﴾ **الكفار ومن إليهم،** ﴿ لا يَعْلَمُونَ ﴾ مثل هذه الحقائق العظيمة والأمثال الجليلة وإلا لاتعظوا وانزجروا عن كفرهم وبغيهم وباطلهم.

الآيـة الـثـالـثـة :

٥١- قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[النحل:٧٦].

الـشرح :

وهذا مثل ضربه الله لنفسه، وللصنم الذي يعبد من دونه، فحاله كحال الأبكم الذي لايسمع ولايعقل ولاينطق، أبكم ظاهرًا وباطنًا فلا يستوي مع الله عز وجل القادر الذي لا يعجزه شيء، والفعال لكل شيء كما قال تعال ﴿ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ [هود: ١٠٧] .

﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ ﴾ مسلم وكفار، طائع وعاصي، بر وفاجر، ﴿ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ ﴾ وهو الصنم وعابده، لا يتكلم، وأصم لا يسمع، ﴿ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ عاجز لا ينفع بشيء، وسيده ومولاه في حالة ظنك منه، ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ ﴾ حمل ثقيل على سيده، ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهُّ﴾ يرسله،﴿ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ إذا أرسله في أمر لا يقضيه ولا يقوم به، وربما لا يرجع إلى وقد آذى هذا وشتم هذا وضرب هذا، فتبقى التبعات على سيده ومولاه، فهذا حال الكافر السيء في خُلقه، السيء في فعله، السيء في قوله، ﴿ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾ وهو الله عز وجل الذي لا يأتي منه إلا الخير على مقتضى علمه وحكمته، وعابده المؤمن الذي يأتي التوحيد والسنة ويُلازم الطاعة ويأمر بالبر والتقوى ويُحسن إلى الناس، إذا

أُرسل في أمر جاء به على وجهه، وإذا وجد أحدًا أحسن إليه، وإذا أُسيء إليه لم يُجازِ بالإساءة، ﴿ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ **الإسلام**.

فهذه أمثال يُبين الله عز وجل بها حال المؤمنين وعظيم شأنهم عند رب العالمين، وعظيم نفعهم للناس، وحال الكافرين وشدة شؤمهم وسوء فعلهم وضررهم على أنفسهم وضررهم على غيرهم، فلا أسوأ من الكافر حالًا ومقالًا ومآلًا؛ لكن من الذي يعقل هذا؟ ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾[العنكبوت:٤٣]، ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾[لقمان:٢٥]، وإلا فالكافر ومعبوده من الأصنام والأوثان في أسوأ حال، ويلتحق به العُصاة حالهم سيء وضررهم حاصل، وشرهم إلى العباد واصل، نسأل الله السلامة والعافية.

الآيـة الـرابـعة :

٥٢- قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[النحل:٩١-٩٢].

الـشرح :

يقول الله عز وجل: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ﴾ وهو شرعه الذي أمركم به، ﴿ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ ﴾ العهود والمواثيق، ﴿ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ وكيلًا ومُطلعًا، ﴿ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ إن نقضتم أو وفيتم، ﴿ وَلا تَكُونُوا ﴾ يا معشر المسلمين، ﴿ كَالَّتِي ﴾ أي: كالمرأة، ﴿ نَقَضَتْ غَزْلَهَا ﴾ كانت تعمل في غزل الخيط فلمَّا تمكنت واستجمعت الغزل إذا بها تفكه وترميه، وهكذا الذي يعمل العمل الصالح ثم يُناقضه بردة أو بمحبط للعمل حاله كهذه التي تنقض الغزل: ﴿ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ﴾ إحكامه، ﴿ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ﴾ يعني: تتخذون أيمانكم مانعة من بركم، ﴿ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ ﴾ أن تكون طائفة، ﴿ هِيَ أَرْبَى ﴾ أكثر، ﴿ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ فإياك أن تنقض غزلك بعد أن توفق للهدى والتقى ،وترجع على عقبيك القهقرى، فأن الأعمال بالخواتيم.

الآيـة الـخـامـسة :

٥٣- قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾[النحل:١١٢].

الـشرح :

هذه البلدة مكة ضربها الله مثلًا لبقية القُرى كانت آمنة مُطمئنة في خير وسعة ورزق حسن، فجاءها النبي صلى الله عليه وسلم يدعوها إلى التوحيد والإسلام ويبقى لها خيرها وعزها وتبقى لها سيادتها، فأبى أهلها إلا الكُفر والعناد والبغي والفساد فكان عاقبة أمرهم أن دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها.

فأصيبوا بالقحط والسنين؛ حيث دعا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِينَ يُوسُفَ» أخرجه البخاري(٩٦١) ومسلم(٦٧٥) عن أبي هريرة رضى الله عنه، حتى أكلوا الجيف والميتة والجلود، ثم جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد استسقِ لمُضر، قال: اسْتَسْقِ اللهَ لِمُضَرَ، قَالَ: فَقَالَ: «إِنَّكَ لَجَرِيءٌ، أَلِمُضَرَ؟»، ثم استسقى لهم، وفيه يقول أبو طالب:

وأَبْـيَضَ يُستَسـقَى الغَـمامُ بوَجْهِـه ثِـمالُ الْيتـامى عِصـمةٌ لِلأرامـلِ

فالشاهد: أن مكة صارت بلد خوف بعد أمنها؛ بسبب كفرها وإنما عاد لها أمنها وطمأنينتها بعد أن دخل أهلها في الإسلام في السنة الثامنة من الهجرة.

قال الله عز وجل: ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً ﴾ وهي مكة، ﴿ كَانَتْ آمِنَةً ﴾ من

الخوف، ﴿ مُطْمَئِنَّةً ﴾ ساكنة، ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ تأتيها فاكهة الشتاء وفاكهة الصيف، وتأتيها الحبوب وغير ذلك، ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ ﴾ ولم تدخل في الإسلام، ﴿ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ بسبب كفرهم وعنادهم، فالأمن والأمان مع الإيمان، قال الله عز وجل: ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[النور:٥٥].

فكثير من الناس حين يسوء الأمن في البلاد يذهبون إلى معالجة أسباب قلة الأمن، تارة بتكثيف العساكر، وتارة برفع المعاشات، وتارة بمحاربة من يرون فيه الفساد والإفساد، المهم أنهم يسلكون سُبلًا كثيرة؛ لتأمين أنفسهم وتأمين بُلدانهم، والواقع: أن الأمن الحقيقي في التزام دين الله ظاهرًا وباطنًا، فلو أن الناس استقاموا على الدين لحصل الأمن العظيم في الدنيا والآخرة كما قال تعالى﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢] .

سورة الإسراء

٥٤- قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾[الإسراء:٤٦].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله عز وجل للكافرين: أنهم لا يفقهون القرآن ولا يعلمون به، ولا يفقهون السنة ولا يعلمون بها كمن في أذنه وقر أي: حِمل بحيث لا يسمع ما يُلقي إليه من الكلام، مع أنهم يسمعون لكن سمع لا ينفعهم، كما قال الله عز وجل﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[الأعراف: ١٧٩] وقال:﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾[البقرة:١٧١].

سورة الكهف

الآية الأولى:

٥٥- قال تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾[الكهف:٢٩].

الشرح:

الشاهد من الآية: أن الله عز وجل مثل الماء الذي يسقاه أصحاب النار كالمُهل وهو: عكر الزيت حين غليه، مع شدة ماء النار نسأل الله السلامة ، إلا أن الله عز وجل يضرب أمثالًا للعرب تفهمها، فلما كانت الجنة غير مرئية ومعلومة الصفات وكانت النار غير مرئية ومعلومة الصفات، وأراد الله عز وجل ترغيب المؤمنين في الجنة، وترهيب الناس من النار وصفها بأمور محسوسة يرونها ويلمسونها مع إثبات الحقائق، والواقع كما قال ابن عباس: **"ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء"**.

﴿ وَقُلِ ﴾ لهم يا محمد: ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ الإيمان والهدى والنور، ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ وهذا ليس على التخيير وإنما على التهديد والوعيد، أي: أن الإنسان يفعل الذي يُريد لكن سيلقى الله بصالح عمله أم بسوء عمله، وسيكون شأن الكافر المعرض يوم القيامة، ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا ﴾أعددنا،

﴿ لِلظَّالِمِينَ ﴾ الكافرين، وهذا دليل على وجود النار الآن، ﴿ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ أحاطت بهم أسوارها، ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا ﴾ من حرها وقَرها وعذابها: ﴿ يُغَاثُوا ﴾ لكن بماذا؟ ﴿ بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ ﴾ كعكر الزيت، وإذا شَربوا منه: ﴿ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ شوى وجوههم وتناثرت لحومهم، ﴿ بِئْسَ الشَّرَابُ ﴾ شرابهم كما قال تعالى: ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ * لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾[الغاشية:٦-٧]، وقال تعالى: ﴿ وَلا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾[الحاقة:٣٦-٣٧]، ﴿ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ أي: وساءت النار منزلًا ومقيلًا ومجتمعًا.

الآية الثانية:

٥٦- قال تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا * لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا * وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا

وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا * هُنَالِكَ الْوَلايَةُ للهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾[الكهف:٣٢-٤٤].

الشرح:

هذا مثلٌ كما ترى عبارة عن مناظرة بين صاحب جنة وفقير، لكن هو مثل ضربه الله عز وجل للمؤمن والكافر، فكل في هذه الدنيا يعمل ويحرث؛ لكن أعمال الكافر ستصبح يبابًا وتذهب هباءً، وأعمال المؤمن تثبت ويلقى أجرها وثوابها يوم القيامة.

فيقول الله عز وجل: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ ﴾ لكفار لقريش، ﴿ مَثَلًا ﴾ لعلهم أن يفقهوه وينزجروا عن كفرهم وباطلهم، ﴿ رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا ﴾ صيرنا،﴿ لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ ﴾ بستانين، ﴿ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ ﴾ أحطناهما، ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ فيأكلون من ثمرها ويرعون في عُشبها.

﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا ﴾ أحسن ما كان وأوفره، ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ أجرينا، ﴿ خِلالَهُمَا نَهَرًا ﴾ فلا يحتاج إلى مساقي ولا إلى شيء يرفع الماء فيسقي بدون كلفة.

﴿وَكَانَ لَهُ﴾ في بستانيه، ﴿ ثَمَرٌ﴾ عظيم جميل، ﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ ﴾ الفقير، ﴿ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ يجادله، ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا ﴾ عقارًا، وزراعة، ﴿ وَأَعَزُّ ﴾

أقوي، ﴿ نَفَرًا ﴾ تابعًا من الأبناءِ وغيرهم، فعجبَ بما آتاه الله، ولو رد النعمة إلى الله لحفظها الله عليه.

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ برد النعمة إلى نفسه وكفران نعمة الله عليه، يرى أنه الذي زرعها ويهتم بها، ولم يرد النعمة إلى الله، ﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ ﴾ أن تهلكَ، ﴿هَذِهِ﴾ المزرعة، ﴿أَبَدًا﴾ وهذه الأمينة من مكر الله عز وجل وقد قال الله عز وجل ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٩].

﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ لأنه كافر بالبعث والنشور، ﴿ وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي ﴾ أي: رُجعت إلى ربي، ﴿ لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ هذا على فهمهم السقيم، قالوا: أكرمنا الله في الدنيا فان كانت ثَمَّ آخرة سنكون فيها أكرم منكم أيضًا فعند البخاري (٢٠٩١) ومسلم (٢٧٩٥) عَنْ خَبَّابٍ رضى الله عنه، قَالَ: كُنْتُ قَيْنًا فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ لِي عَلَى العَاصِ بْنِ وَائِلٍ دَيْنٌ، فَأَتَيْتُهُ أَتَقَاضَاهُ، قَالَ: لاَ أُعْطِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: «لاَ أَكْفُرُ حَتَّى يُمِيتَكَ اللهُ، ثُمَّ تُبْعَثَ»، قَالَ: دَعْنِي حَتَّى أَمُوتَ وَأُبْعَثَ، فَسَأُوتَى مَالًا وَوَلَدًا فَأَقْضِيكَ، فَنَزَلَتْ: ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا * أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا * كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴾[مريم:٧٧-٧٩].

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ ﴾ الفقير، ﴿ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ﴾ يُناظره، ﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ﴾ أوجدك من العدمِ، والترابُ أصلُ خِلقة آدم عليه السلام ، ﴿ ثُمَّ مِنْ

﴿ نُطْفَةٍ ﴾ ما كان من التزاوج بين بقيتهم كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾.

﴿ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴾ سويًا. ﴿ لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي ﴾ لم أكفر به وأوحده، ﴿ وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ لا أدعو معه ملكًا مُقربًا ولا نبيًا مُرسلًا، بل أفرده بما يجب له في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

﴿ وَلَوْلا ﴾ هلا، ﴿ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ ﴾ بستانك و مزرعتك، ﴿ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ ﴾ حتى لا تُصاب بالعين، ولا تُصاب أيضًا بالفخر(١)، ﴿ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾.

﴿ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ ﴾ إما في الدنيا أو الآخرة، ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا ﴾ على جنتك، ﴿ حُسْبَانًا ﴾ حاصبًا من ريح ومطر، ﴿ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ يُحرقها، ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا ﴾ظاهرًا، ﴿زَلَقًا﴾ لا حياة فيه ولا زراعة، فكان هذا دعاء عليه.

﴿أَوْ يُصْبِحَ﴾ يصير، ﴿مَاؤُهَا غَوْرًا﴾ يذهب في باطن الأرض، أو يكون مالحًا لا نفع فيه والمعنى الأول أظهر، ﴿ فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴾ تحصيلًا.

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ أي: هذا الحاصب جاء بالليل وأتى على الزرع والثمر، ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا ﴾ يعني: بكى على ما أنفق فلا بقيَّ له المال

---

(١) كان شيخنا مُقبل رحمه الله إذا رأى طُلابه ورأى انتشار الدعوة يقول: "ليس بحولنا ولا بقوتنا ولا بفصاحتنا ولا بكثرة علمنا؛ ولكن شيء أراده الله"، فنعم إذا فتح الله عليك بخير فإياك أن ترى حظ نفسك بل هو الله الذي أكرمك والذي قربك، والذي أعطاك، والذي منحك.

الذي كان مُدخرًا ، ولا بقيت له زراعته التي كان يؤمل أن تأتي له بالثمر وتعويض ما أنفق، ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ ﴾ فارغة، ﴿ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ يابسة لم يبقَ فيها ما يُفيد، ﴿ وَيَقُولُ ﴾ عند ذلك حسرة وندامة، ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ لكن متى قال هذا؟ حين حرقت المزرعة وانتهت، وهكذا سيكون حاله يوم القيامة يتمنى أنه لم يكفر بالله عز وجل ويتمرد على شرعه ولكن﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ [ص: ٣].

وكما قال تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون: ٩٩-١٠٠]، وكما قال تعالى: ﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى * يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾وهكذا.

﴿ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ ﴾ جماعة، ﴿ يَنصُرُونَهُ ﴾ يمنعونه من عذاب الله وغضبه وبطشه، **﴿ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾** لنفسه لعجزه وضعفه.

﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ ﴾ النصرة والحفظ والكلاءة، ﴿ للهِ الْحَقِّ ﴾ لله عز وجل، ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا ﴾ جزاؤه خير جزاء، ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ وخير العاقبة لمن تولاهم من عباده المؤمنين.

فعلى الإنسان أن يكون ملتزمًا لدين ربه مُبادرًا إلى مرضاته إذا أراد لنفسه الخير العظيم، فهذا المثل لم يضربه الله عز وجل للتفكه إنما ضربه للعِظة والعبرة والعمل.

الآية الثالثة :

٥٧- قال تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾[الكهف:٤٥].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله عز وجل لحقارة الحياة الدنيا وهوانها عند الله عز وجل.

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ ﴾ يا محمد: ﴿ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ التي يتنافسون فيها ويقدمونها على الآخرة، ﴿ كَمَاءٍ ﴾ مطر، ﴿ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ من السحاب؛ لأن ما علا الإنسان سماء، ﴿ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ ﴾ يعني: أفسد النبات ، فإذا نزل المطر وما زال بعض النبات لم ينمُ يفسد النبات، أو أن المعنى: أنه نبت ثم بعد ذلك عاد إلى اليباس، ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا ﴾يابسًا متفتتًا، ﴿ تَذْرُوهُ ﴾ تضربه وتسُفُّه ﴿ الرِّيَاحُ ﴾ فبعد أن كان ثابتًا مخضرًا مورقًا جميلًا يانعًا أصبح يابسًا يبابًا تُحركه الريح، وتفرقه هاهنا وهاهنا، ﴿ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ لا يُعجزه شيء.

فهكذا أنت أيها الإنسان بينما أنت في هذه الحياة الدنيا تؤمل البقاء وتؤمل المؤملات الكثيرة يأتيك الموت فإذا بك كأمس الدابر لا تنتفع إلا بما قدمته فعن أبي هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ

انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ» أخرجه مسلم (١٦٣١).

الآية الرابعة:

٥٨- قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾[الكهف:٥٧].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله للمعرضين عن كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ **لا أظلم**، حتى القاتل وإن كان ظالمًا والفاجر وإن كان ظالمًا؛ لكن هذا أظلم منه، ﴿ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ﴾ **القرآن والسنة**، ﴿ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ **إعراضًا كليًا لم يُحقق التوحيد، ولم يأخذ المتابعة**، وأما أصحاب الإعراض الجزئي فهم عُصاه ليسوا بكفار، ﴿ وَنَسِيَ ﴾ **ترك**، ﴿ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ **من الباطل، أو نسيَّ ما قدمت يداه على النسيان وهو الذهول، فنسيَّ أعماله السيئة**، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ **صيرنا**، ﴿ عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ **عوازل لا يفقهون القرآن ولا السنة؛ بسبب إعراضهم وبسبب فساد القلوب**، كما قال تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[الحج:٤٦]، ﴿ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ **حِملًا بحيث لا يسمعون الحق ولا يستجيبون له**، ﴿ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى ﴾ **إلى الإسلام**

والسنة،﴿ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾لما في قلوبهم من الشر والفساد والإعراض والعناد فلا يستجيبون ولا يهتدون؛ وهذا لعلم الله بهم ولسوء حالهم.

سورة الأنبياء

٥٩- قال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾[الأنبياء:١٨].

الشرح:

فقال:﴿ بَلْ نَقْذِفُ ﴾ نرمي، ﴿ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ﴾ يمحقه ويدحضه، فهذا مثل ضربه الله عز وجل لنصرة الحق وظهوره كأنه قذف به قذفًا على الباطل وأدى إلى إزهاق الباطل وذهابه جملة كما قال تعالى: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[الإسراء:٨١]، ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾[سبأ: ٤٩]، ﴿ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ ذاهب مضمحل، مثله بالروح حين تخرج من البدن فيلحقه الموت والهلاك، ﴿ وَلَكُمُ الْوَيْلُ ﴾ العذاب والهلاك، ﴿ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ الله عز وجل حيث تجعلون له الصاحبة والولد والشريك والنظير والمثل تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا.

وهكذا هي الحجج القرآنية والآيات الربانية والأحاديث النبوية ينتصر صاحبها حتى قال الشافعي: "من قال بالحديث قويت حجته"، وقال ابن عبد

البر: "من قال بالحديث أفلج"، أي: أفلج خصومه، والمراد بالحديث: الحديث الثابت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

سورة الحج

الآيـة الأولـى:

٦٠- قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ ﴾[الحج:١-٢].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله لبيان أهوال يوم القيامة وشدتها.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا ﴾ اطيعوا وراقبوا، ﴿ رَبَّكُمْ ﴾ خالقكم ،ورازقكم ومدبركم، ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ ﴾ أهوال القيامة من الزلزلة وما يتبعها، ﴿ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ مهول، كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ﴾[الفرقان:٢٥]، وقال تعالى، ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾[المعارج:٨-٩]، وقال، ﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾[الرحمن:٣٧]، يعني: كالخيل الذي لونه لون الورد من شدة ما يلحقها من الحرارة حتى تتشقق، وأنت انظر إلى الحديدة حين تحميها على النار تبدأ تسود وتسود ثم بعد ذلك تصير مثل الوردة، فإذا صارت مثل الوردة سَهُلَ ليها واستخدامها، نسأل الله السلامة.

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا ﴾ ومن شدة هذا اليوم: ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ وهذا لا يكون إلا في أشد الأحوال، بحيث تذهل الأم مع شدة حبها له عن ولدها ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى ﴾ هذا هو المثل؛ لشدة ما لحقهم يكونون مثل السُكارى لا يقوون على شيء ولا يقومون لشيء، ﴿ وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ﴾ في الواقع ما يشربوا مُسكِر ولا تعاطوا مُخدرًا، ﴿ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ ﴾ مهول عظيم، وجاء في حديث أبي سعيد بيان أن هذا يكون حين يقول الله عز وجل لآدم: « يَا آدَمَ قُمْ فَابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ قَالَ: يَا رَبِّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ إِلَى النَّارِ وَوَاحِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ»، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ ﴾. أخرجه البخاري (٣٣٤٨) ومسلم (٢٢٢).

الآية الثانية:

٦١- قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ * يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ * يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴾[الحج:١١-١٣].

الشرح:

هذا المثل الذي ضربه الله للمنافقين الذين لم يثبتوا على الإيمان: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ

﴿ وهم أهل النفاق، ﴿ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾ أي: على ميل، إن وسع الله عليه استمر في عبادته، وإن ضُيِقَّ عليه انحرف عن عبادته، ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ ﴾ من الدنيا، إذ أنه ليس باحثًا عن خير الحسنات، شأنه الدنيا، وملذاتها﴿ اطْمَأَنَّ بِهِ ﴾ ارتاح إليه وسكن، وربما مدح المؤمنين ومشى معهم وجالسهم ويتبجح بما لم يفعل، ﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴾ من فقر أو مرض أو خوف أو نحو ذلك، اظهر خلا ذلك من التسخط، ونحوه كما قال تعالى: ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِم يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ﴾[المائدة:٥٢]، ﴿ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ المراد بالانقلاب على الوجه: الارتداد، مثل ضربه الله عز وجل للمرتد والراجح عن الحق كالمنقلب على وجهه، ﴿ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ﴾ قد تكون له دنيا يأكلها ويشربها ويتبعلها، لكن الحياة الحقيقة في حياة الإيمان فهو خاسر لها والآخرة يكون مع الكافرين، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾[النساء:١٤٥]، ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ والعظيم.

ومن شأنه أنه: ﴿ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرُّهُ ﴾ من المعبودات غير الله عز وجل، كالأصنام والأوثان، ﴿ وَمَا لا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ ﴾ السحيق.

﴿يَدْعُوا﴾ يعبد، ﴿لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ﴾ يدعو الأصنام والأوثان والمربوبات من دون الله، ﴿ لَبِئْسَ الْمَوْلَى ﴾ مولاه، صنم أو وثن أو قبر، ﴿ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴾ ما من وراءه إلا الشؤم.

الآية الثالثة :

٦٢- قال تعالى: ﴿ حُنَفَاءَ لله غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِالله فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾[الحج:٣١].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله عز وجل لبيان حال الكافر والنافق بعد مفارقة الروح الجسد، فإذا وصلت روحه إلى السماء: ﴿ لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾[الأعراف:٤٠]، ثم يلقونها من السماء فكأنما خَرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق حتى يرتطم بالأرض، فعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ، وَلَمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: " اسْتَعِيذُوا بِالله مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا، "، ثُمَّ قَالَ: " إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ

كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ ". قَالَ: " فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ " قَالَ: " فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ، يَعْنِي بِهَا، عَلَى مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى ". قَالَ: " فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ ". قَالَ: " فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا، وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ ". قَالَ: " وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ،

فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي، وَمَالِي ". قَالَ: " وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ ". قَالَ: " فَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ "، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: " اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا ". ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ، فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١] " فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا

أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ، فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا، وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيء بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ " أخرجه أحمد(١٨٥٣٤).

يقول الله تعالى في شأن المؤمنين: ﴿ حُنَفَاءَ لله ﴾ أي: **ملازمين للتوحيد مبتعدين عن الشرك والتنديد، فالحنيف: هو الموحد،** ﴿ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ **لا الشرك الأكبر ولا الأصغر**، وإن وقعوا في ذلك رجعوا وأنابوا، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ ﴾ **ويموت على شركه وكفره**؛ لأنه قد عُلِم بالضرورة: أن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، فإذا أشرك بالله ثم تاب قبل موته عُفِيَّ عنه شركه السابق، فلا بد من هذا التقدير: **"ومن يُشرك بالله فيمت على شركه الأكبر"**، ﴿ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ **أُلقيَّ من السماء،** ﴿ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ ﴾ **هذا ينهشه وهذا يأخذه،** ﴿ أَوْ تَهْوِي بِهِ ﴾ **تسقط،** ﴿ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ **بعيد،** فمثل هذا هل يسلم أو ينجو؟! أبدًا، ويكون موته من أشد أنواع الموتات خوف الهَوْيْ، وشدة التخطف، وانخلاع القلب؛ فلذلك تجد الكافر في أسوأ حال سواءً في حياته أو عند مماته لهم معيشة ضنكا حتى مع كثرة دنياهم وهم في هم وغم، يكثر فيهم الانتحار، وإن أُصيب بهم ذهب في باطل لإزالته إما بشُرب خمر، وإما الزنا، وهكذا أموالهم الرِبا، وإذا أراد أن يعود إلى إلهه ومعبوده قام إلى الصنم أو

الوثن يدعوه ويرجوه فيزداد غمًا إلى غمه وهمًا إلى همه وضيقًا إلى ضيقه، وما هم فيه من سعادة الدنيا زائلة في دنياهم وزائلة في أخراهم؛ لأن توحيد الله والثقة به من أعظم أسباب علاج القلوب، أسباب صفاء الصدور، فتجد المؤمن مهما بلغت شدته ظنه بالله عز وجل حسن كما قال الله عز وجل: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ ﴾[الأنبياء:٨٧]، فلحقته ظُلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت ومع ذلك يقول: ﴿ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[الأنبياء:٨٧]، فلا يصدر من كافر، ولامنافق ؛لأنهم ظنوا بالله ظن السوء، إذا حصل عليه دون هذا من الضيق انقطعت نفسه وبادرت بالخروج من شدة ما لحقه، أما المؤمن تجده في ذلك الوقت وهو إما أن يحرص على أن يموت على الشهادة والتوحيد و التوبة، وإما أن يدعو الله عز وجل مؤملًا فيه النجاة والسلامة، فيونس عليه السلام استغفر ربه وسبحه: ﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[الصافات:١٤٣-١٤٤]، فسلمه الله ونجاه.

فالشاهد: أن المؤمن لا ينقطع رجاؤه بالله أبدًا، وظنه بالله الحسن أبدًا مهما كان حتى في الآخرة يكون على الصراط ينظر إلى النار: رَبِّي اصرف وجهي عن النار، فإذا صرف الله وجهه قال: الحمد لله، ثم يقول: ربي أدخلنِ الجنة، ربي أدخلنِ الجنة، فما يزال رجاؤه في الله عز وجل.

فلا تغتر أيها المُسلم بظاهر سعادة الكافرين، والله إنهم يعيشون في ظنك شديد

وحال سيء، يتخوفون الفقر، ويتخوفون الأعداء، وتضيق صدورهم لكثرة معاصيهم وذنوبهم حالهم كما قال تعالى: ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾[المنافقون:٤]، انظر إلى أهل الإسلام الحق يعلمون أن الكفار يمكرون بهم، وأن المنافقين يمكرون بهم، وأن الجن والشياطين تمكر بهم ومع ذلك سائرون في شأنهم فلا يلتفتون يمنة ولا يسرة اعتمادهم على الله عز وجل.

بينما الكافرين يمكرون بالمسلمين ليل نهار وسر وجهار خوفًا منهم إذا قويت شوكتهم، وأهل الإسلام الحق الخُلص لا يُبالي بالكافر يفعل ما فعل؛ لأنه يعلم أن الأمر إلى الله، وأن ما يُصيبه من الانتكاس أحيانًا بسبب ذنوبه ومعاصيه؛ فلذلك يعيش تائبًا رجاعًا منيبًا مستنصرًا بالله عز وجل: ﴿ وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾[البقرة:٢٥٠]، هذه آخر كلمة من أطول سورة في القرآن دليل على أملهم ورجائهم[1].

وهذه الآية من أدلة عذاب القبر، وتجد أن الرافضة والخوارج يُنكرون عذاب

---

(١) يذكرون أن الشيخ ابن باز رحمه الله قالوا له: يا شيخ صنعوا طائرات بدون طيار، قال لهم: هي تمشي تحت العرش أو وفوق العرش؟ قالوا: تحت العرش، قال: إذًا يكفنيها الذي فوق العرش، إذًا لا تتهيب ولا تتخور وإن أذنبت ارجع إلى الله عز وجل، وإن ضاق حالك ارجع إلى الله عز وجل وادعه بالفرج، وإن كَثُرَ خيرك احمد الله الذي وفقك له لا ترى حظ نفسك، الله الذي خلقك والذي أمدك والذي أعدك والذي وفقك والذي قبل منك ما أنت إلا عبد له.

القبر متأسين بالمعتزلة، وأغلب المنحرفين في باب المغيبات تأثرهم بالمعتزلة وإن تسموا بغير ذلك، فالأشعري متأثر بالمعتزلة، والجهمي متأثر بالمعتزلة وإن كان قد غلا عليهم، والخارجي متأثر بالمعتزلة، والرافضي متأثر بالمعتزلة، والزيدي متأثر بالمعتزلة، والإباضي متأثر بالمعتزلة، باختصار كثير من أهل البدع جدتهم المعتزلة، وحزب التحرير مثلهم وعلى طريقهم، فهؤلاء ينكرون خبر الآحاد وحُجيته ،فلا تتهيبوا من الذين يُنكرون ما جاء في الكتاب والسنة، فأن الحق أبلج والباطل لجلج.

وسموا معتزلة؛ لاعتزالهم مجلس الحسن البصري، ، جاء أحدهم يسأل الحسن البصري عن الكبيرة، فقال: واصل بن عطاء الغزال: "لا مؤمن ولا كافر"، ثم قام إلى سارية من سواري المسجد وانظم إليه عمرو بن عبيد بن باب وسموا بالمعتزلة من ذلك الحين حيث اعتزلوا جماعة الحق، وبعد ذلك تدرج أمرهم حتى أنكروا صفات الله عز وجل فعندهم أنه تعالى لا يسمع، ولا يُبصر، ولا يتكلم، ولا يُريد، ولا يشاء، ولا يغضب، ولا يرضى، ولا يسخط وكل الآيات القرآنية التي فيها وصف الله عندهم يحرفون معناها ويقولون في كتابهم: **"الأساس في عقيدة الأكياس"**: سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، مريد بلا إرادة، عليم بلا علم وهكذا.

ثم عمدوا إلى مسألة اليوم الآخر فأنكروا الصراط، والحوض، والميزان، والشفاعة لأهل الكبائر، وأنكروا خروج الموحدين من النار، وأنكروا عذاب

القبر ونعيمه ، إذ أنهم عمدوا إلى المغيبات فعطلوها وصرفوها.

الآية الرابعة :

٦٣- قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾[الحج:٧٣].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله عز وجل لضعف الأصنام وخستها ودنائتها، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ ﴾ لبيان ضعف الأصنام، ﴿ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ وعوه واعقلوا، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ من الأصنام والأوثان والقبور والأحجار والأشجار، ﴿ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا ﴾ وهو من أصغر الحيوان، ذباب صغير في جسمه مؤذي في طبعه(١)، ﴿وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ ﴾ يعني: الأصنام، ﴿الذُّبَابُ

(١) يذكرون أن الشافعي كان عند بعض الأمراء فقالوا له: لماذا خلق الله الذباب؟ قال: يُذل به الجبابرة، ويذكرون: أن للذباب من الأجهزة الشيء العجيب: كثرة أعينه، وكثرة حواسه، وكثرة طيرانه، وكثرة سفاده، فيُضرب به المثل في كثرة سفاده للإناث، ويُضرب به المثل في الحرص، ويُضرب به المثل في الدناءة فيطرد فيرجع، وإذا وقع في ماء فاغمسه فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر دواء أخرجه البخاري (٣٣٢٠) عن ابي هريرة رضى الله عنه.

﴿ شَيْئًا ﴾ لا تستطيع أن تسترد ما أُخذا منها فكيف تنفعكم؟! وتكرمكم؟! وتدفع عنكم؟! ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ ﴾ **وهو الصنم،** ﴿ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ **وهو الذباب،** ومع ذلك عموا عن الحق والهدى، فصاروا يعبدونهم ويرجونهم من دون الله والله المستعان وحالهم كما قال تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾[الأعراف:١٧٩].

سورة المؤمنون

٦٤- قال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[المؤمنون:٤١].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله عز وجل لبيان كيفية أخذه لأهل الباطل ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ أي: **الكفار** ﴿الصَّيْحَةُ﴾ صيحة جبريل عليه السلام أو العذاب الذي نزل بهم ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾

كالغثاء الذي يبقى من السيل لا قيمة لهم ولا وزن لهم، وهكذا جعل الله عز وجل قوم عاد كأعجاز نخل خاوية.

سورة النور

الآية الأولى:

٦٥- قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ * اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[النور:٣٤-٣٥].

الشرح:

هذا مثل عظيم ضربه الله للقرآن، يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ ﴾ يا محمد وإلى المسلمين: ﴿ آيَاتٍ ﴾ **حجج وبينات واضحات جليات،** ﴿ وَمَثَلًا ﴾ عبرة وعظة: ﴿ مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ حيث دمدم الله عليهم بعد أن كانوا أممًا كبيرة عظيمة غنية قوية، ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ **أنزل فيه موعظة وعِظة وعبرة،** ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ **يستفيدون منها.**

ثم قال تعالى: ﴿ اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ **إثبات اسم النور لله عز وجل،** وقد أثبته ابن القيم وغيره وفي حديث ابن عباس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: «اللهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ»

أخرجه البخاري(١١٢٠) ومسلم(٧٦٩)، وليس المعنى: أن هذا النور الذي نراه هو الله أو صفته، فالله عز وجل محجوب بالحُجُبِ، وإنما يراه المؤمنون يوم القيامة، وقيل في المعنى: ﴿ اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾: **منور السماوات والأرض**، مع إثبات اسم وصفة النور له تعالى، ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ **القرآن**، مثله في الحس: ﴿ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ **كوة فيها قنديل وسراج وقد**، كان العرب يضعون المصابيح في الكوة حتى يرتفع عنهم قليلًا ويُضيء لهم، ويسلم من عبث الأطفال ونحو ذلك، ﴿ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ﴾**فالقنديل يضئ نورًا**، وزادته الزجاجة نورًا وبهاءً ووضوحًا وجلاءً، يعني: فنور المصباح لا بأس به، لكن مع الزجاجة يزداد نوره، ﴿ الزُّجَاجَةُ ﴾ يعني: **مثل القرآن بالمصباح**، ثم المصباح أُحيط بزجاجة زادته نورًا وبهاءً وخيرًا، الزجاجة أيضًا: ﴿ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ **ما فيه حرارة فيحرق**، وضوؤه ولمعانه يراه القريب والبعيد ويستفيد منه الجميع، وهذا المصباح: ﴿ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ ﴾ يعني: **زيته من شجرة الزيتون المُباركة**، زد على ذلك: أن هذه الشجرة: ﴿ لا شَرْقِيَّةٍ ﴾ **فتضربها الشمس مبدأ خروجها ثم تغيب عنها**، ﴿ وَلا غَرْبِيَّةٍ ﴾ **فتضربها الشمس عند مساءها ثم تغيب عنها ولكنها بين ذلك**، يعني: فيكون شأنها مع الشمس والهواء والماء على خير حال، ﴿ يَكَادُ ﴾ **يقرب**، ﴿ زَيْتُهَا يُضِيءُ ﴾ **لشدة صفاءه قبل أن يوضع في المصباح**، لو صُبَّ زيت هذه الشجرة في قدر لرأيت من بهائه ونوره وصفائه ما كأنه ضوء، ﴿ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ **فكيف إذا مسته النار**؟ يعني: ازداد نوره، فهذا مثل للقرآن في قلب المؤمن، مثل

عظيم، قلب المؤمن فيه خير ونور وبهاء، فإذا دخله القرآن زاد نوره وخيره وبهاؤه، ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ **نور المصباح ونور الزيت**، وهكذا نور القرآن ونور المؤمن، ﴿ يَهْدِي ﴾ **يوفق**، ﴿ اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ **ممن علمه أهلًا للهداية**، ﴿ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ ﴾ **المتنوعة**، ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ **لعلهم يتذكرون، ويستجيبون**، ﴿ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾**ومن ذلك علمه بمصالح العباد**.

فيها أيها المؤمن لا تُطفئ نورك بمعصية الله عز وجل، ولا تُحرم من نور القرآن بإعراضك وهجرك له، انظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم ماذا كان يقول: «**اللهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَاجْعَلْ فِي سَمْعِي نُورًا، وَاجْعَلْ فِي بَصَرِي نُورًا، وَاجْعَلْ مِنْ خَلْفِي نُورًا، وَاجْعَلْ مِنْ بَيْنَ يَدَيَّ نُورًا، وَاجْعَلْ عَنْ يَمِينِي نُورًا، وَاجْعَلْ عَنْ يَسَارِي نُورًا، وَاجْعَلْ مِنْ فَوْقِي نُورًا، وَاجْعَلْ مِنْ تَحْتِي نُورًا وَأَعْظِمْ لِي نُورًا**» أخرجه مسلم (٧٦٣) ، ثمانية عشر مسألة؛لأن الإنسان إذا لم يكن مؤمنًا موحدًا مسلمًا منقادًا لله حيوان من الحيوانات كالدواب، والأنعام، والحمير، والإبل، والبقر، والغنم، والكلاب، زد على ذلك: أنه حيوان مُكلف يؤاخذ على ذنوبه ومعاصيه، زد على ذلك: أنه أشد حطمة من الحيوان، فالحيوانات حطمتها فيما سُخرت له، أما هذا مُكِنَّ بعقله من اختيار كثير من الأشياء فربما يتفنن في تعذيبه، وفي قتله، وفي سرقته، ومكره، وأذيته فلا قيمة لهذا الحيوان إلا بالإيمان وإلا فقد نصَّ القرآن على أن الإنسان حيوان بل أسوأ أنواع الحيوان كما قال تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾[الأعراف:١٧٩]، وقال: ﴿ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا

تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ [محمد:١٢]، فالأنعام تتمتع وتأكل وتموت وينتهي شأنها إلا ما كان من المقاصة يوم القيامة ثم تكون تُرابًا، أما الإنسان إن لم يستقم على دين الله فسيؤاخذ على حيوانيته، وشهوته، و بطشه، وظُلمه، وعلى جميع شأنه لا سيما إذا جمع مع ذلك إشراكًا وكُفرًا بالله: ﴿ إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾[النساء:٤٨].

قال ابن القيم رحمه الله في [الوابل الصيب ١/ ٥٢]: قال أبي بن كعب: مثل نوره في قلب المسلم.

وهذا هو النور الذي أودعه في قلبه من معرفته ومحبته والإيمان به وذكره، وهو نوره الذي أنزله إليهم فأحياهم به وجعلهم يمشون به بين الناس، وأصله في قلوبهم ثم تقوى مادته فتتزايد حتى يظهر على وجوههم وجوارحهم وأبدانهم، بل ثيابهم ودورهم، يبصره من هو من جنسهم وسائر الخلق له منكر.

فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور وصار بإيمانهم يسعى بين أيديهم في ظلمة الجسر حتى يقطعوه، وهم فيه على حسب قوته وضعفه في قلوبهم في الدنيا، فمنهم من نوره كالشمس وآخر كالقمر وآخر كالنجوم وآخر كالسراج وآخر يعطي نوراً على إبهام قدمه يضيء مرة ويطفأ أخرى إذا كانت هذه حال نوره في الدنيا فأعطى على الجسر بمقدار ذلك، بل هو نفس نوره ظهر له عياناً، ولما لم يكن للمنافق نور ثابت في الدنيا بل كان نوره ظاهراً لا باطناً أعطى نوراً ظاهراً مآله إلى الظلمة والذهاب اهـ.

الآية الثانية :

٦٦- قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾[النور:٣٩-٤٠].

الشرح:

لما ضرب الله عز وجل مثل المؤمن مع القرآن ثنى بذكر الكافر وما هو عليه من سوء الحال والمآل وضرب لهم مثلين:

الأول: لأناسٍ يعلمون شيئًا على غير وجهه، ويعملون أعملًا يظنون أنهم على شيءٍ، وليسوا على شيءٍ، وهم صحاب الجهل المركب على ما يأتي.

الثاني: لأناسٍ أصحاب جهل وفساد عريض قد أحاط بهم من جميع جهاتهم فلا يهتدون سبيلًا.

فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ **بربهم وبنبيهم،** ﴿ أَعْمَالُهُمْ ﴾ **التي عملوها من الخير** ،كالعتاقة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والحج إذ كانوا يحجون ويعتمرون ويتنسكون؛ لكنهم كانوا غير إخلاص فهذه الأعمال: ﴿ كَسَرَابٍ ﴾**ما يرى في الفلاة عند شدة الحر كهيئة الماء يكون في شدة الحر**، إذ كنت واقف هاهنا تُشاهد

كأن الماء هناك، فإذا ذهبت إلى ذلك المكان لم تجد ماءً وإنما كان سراب في العين، ﴿ بِقِيعَةٍ ﴾ **بأرض مستوية**، ﴿ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ﴾ **العطشان**، ﴿ مَاءً ﴾ ويفرح به ويستبشر لعله أن ينال مطلوبة وأن يُحقق مرغوبة، ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَهُ ﴾ **جاء ذلك السراب**: ﴿ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ وهكذا الكافر يظن أنه عَمِلَ بعض الأعمال وحاله كما قال الله عز وجل: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣]، وقد سُئِلَ عن النبي صلى الله عليه وسلم عن ابن جدعان ما له عند الله؟ فقال: «لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ» أخرجه مسلم (٢١٤) عن عائشة رضي الله عنها ، فلما لم يكن موحدًا بل كان مُشركًا مندادًا لم يستفد منه كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾[المائدة: ٢٧].

﴿ وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ﴾ **كاملًا غير منقوص**، وأدخله النار وخلده فيها، ﴿ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ يُحاسب المكلفين جميعًا في نصف نهار، أو هذا مثل آخر: ضرب له مثلًا مع عمله، وضرب له مثلًا مع حاله.

قال ابن القيم رحمه الله [التفسير القيم ١/ ٣٩٩] : "فشبه علوم من لم يأخذ علومه من الوحي وأعماله: بسراب يراه المسافر في شدة الحر فيؤمه، فيخيب ظنه، ويجده نارا تتلظى.

فهكذا علوم أهل الباطل وأعمالهم إذا حشر الناس، واشتد بهم العطش بدت لهم كالسراب فيحسبونه ماء، وإذا أتوه وجدوا الله عنده، فأخذتهم زبانية العذاب فنقلوهم إلى نار الجحيم: ﴿ وَسُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٥]وذلك

الماء الذي سقوه هو تلك العلوم التي لا تنفع والأعمال التي كانت لغير الله تعالى صيرها الله تعالى حميما، وسقاهم إياه، كما أن طعامهم ﴿ مِنْ ضَرِيعٍ * لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾ [الغاشية: ٦-٧]

وهو تلك العلوم والأعمال الباطلة، التي كانت في الدنيا كذلك لا تسمن ولا تغنى من جوع.

وهؤلاء هم الذين قال الله عنهم ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا* الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ [الكهف ١٠٣-١٠٤] وهم الذين عنى الله بقوله: ﴿ وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً﴾[الفرقان: ٢٣]، وهم الذين عنى بقوله تعالى: ﴿ كَذلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمالَهُمْ حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ وَما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾[البقرة:١٦٧] "اهـ .

﴿ أَوْ ﴾ أن مثلهم الثاني، ﴿ كَظُلُمَاتٍ ﴾ ظُلمات الشرك، والشك، والنفاق، ﴿ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ﴾ عميق، متلاطم أمواجه عاتية ريحه وليله مُظلم، ﴿ يَغْشَاهُ مَوْجٌ ﴾ موج كبير، ﴿ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ﴾ فاشتركت عدة ظُلمات: ظلمة الليل، ظُلمة البحر، وظُلمة الموج، وظُلمة السحاب،﴿ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ وهذا حال الكافر مع ما في قلبه من الشبهات والضلالات، وما يكون عليه يوم القيامة في الدركات في نار تلظى كلها ظُلمة، ﴿ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ ﴾ من شدة الظلام، ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا ﴾ هدايةً وتوفيقًا وتسديدًا: ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ كما قال الله عز وجل: ﴿ اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى

النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[البقرة:٢٥٧].

قال ابن القيم رحمه الله في[اجتماع الجيوش الإسلامية ٢/ ٢٢]:"والقسم الثاني من هذا الصنف أصحاب الظلمات وهم المنْغمِسون في الجهل بحيث قد أحاط بهم من كل وجه، فهم بمنزلة الأنعام بل هم أضل سبيلا؛ فهؤلاء أعمالهم التي عملوها على غير بصيرة بل بمجرد التقليد وإتباع الآباء من غير نور من الله تعالى ﴿كَظُلُمَاتٍ﴾ جمع ظلمة وهي ظلمة الجهل وظلمة الكفر، وظلمة الظلم، وإتباع الهوى وظلمة الشك والريب، وظلمة الإعراض عن الحق الذي بعث الله تعالى به رسله صلوات الله وسلامه عليهم، والنور الذي أنزله معهم ليخرجوا به الناس من الظلمات إلى النور، فإن المعرض عما بعث الله تعالى به محمدا صلى الله عليه وسلم من الهدى ودين الحق يتقلب في خمس ظلمات. قوله ظلمة وعمله ظلمة ومدخله ظلمة ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمة وقلبه مظلم ووجهه مظلم وكلامه مظلم وحاله مظلم؛ وإذا قابلت بصيرته الخفاشية ما بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم من النور جد في الهرب منه، وكاد نوره يخطف بصره، فهرب إلى ظلمات الآراء التي هي به أنسب وأولى كما قيل:

خفافيش أعشاها النهار بضوئه و وافقها قطع من الليل مظلم

فإذا جاء إلى زبالة الأفكار ونخالة الأذهان، جال ومال وأبدى وأعاد وقعقع وفرقع، فإذا طلع نور الوحي وشمس الرسالة انحجز في حجرة الحشرات " اهـ.

سورة الفرقان

٦٧- قال تعالى: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[الفرقان:٤٤].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله عز وجل للكافرين في سوء حالهم وشدة ضلالهم، يقول الله لرسوله الأمين صلى الله عليه وسلم: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ ﴾ يا محمد: ﴿ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ ﴾ قولك، ﴿ أَوْ يَعْقِلُونَ ﴾ منقولك، ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ ﴾ السائبة التي لا عقل لها ولا فهم ولا إدراك لها، ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ لأن الأنعام غير مُكلفة وغير عاقلة بل كثير منها يهتدي لقائده وسائسه، وأما الإنسان فقد مُيِّز عليها ومع ذلك صار أضل سبيلًا منها إذ أنه يدخل النار ويُعذب فيها ويخلد فيها على كفره وشركه، نسأل الله السلامة والعافية.

فهذه الآية فيها: ذم الكفر وأهله، فينبغي للمسلم أن لا يغتر بهم وإن كانت شارتهم حسنة، وكان منظرهم رائقًا فهم ليسوا بشيء عند الله: ﴿ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾[الكهف:١٠٥].

قال ابن القيم رحمه الله في (١/ ٣٢١)"فشبَّه أكثر الناس بالأنعام، والجامعُ بين النوعين التساوي في عدم قبول الهدى والانقياد له، وجعل الأكثرين أضلَّ سبيلًا من الأنعام، لأن البهيمة يهديها سائقها فتهتدي، وتتبع الطريق، فلا تحيد

عنها يمينًا ولا شمالًا، والأكثرون يدعوهم الرسل ويهدونهم السبيلَ فلا يستجيبون، ولا يهتدون ولا يفرِّقون بين ما يضرُّهم وبين ما ينفعهم.

والأنعام تفرق بين ما يضرها من النبات والطريق فتتجنبه، وما ينفعها فتؤثره.

والله تعالى لم يخلق للأنعام قلوبًا تعقل بها، ولا ألسنة تنطق بها، وأعطى ذلك لهؤلاء، ثم لم ينتفعوا بما جعل لهم من العقول والقلوب والألسنة والأسماع والأبصار. فهم أضل من البهائم. فإن من لا يهتدي إلى الرشد وإلى الطريق مع الدليل إليه هو أضل وأسوأ حالا ممن لا يهتدي حيث لا دليل معه"اهـ.

سورة العنكبوت

٦٨- قال تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[العنكبوت:٤١].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله عز وجل لبيان فساد دين المشركين ،وضعف حجتهم وانتفاعهم بمن يعبدونهم من دون الله عز وجل، واعترض الكفار على ضرب هذا المثل، فأنزل الله: ﴿ إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾[البقرة:٢٦]، الآية.

فيقول تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ **من الأصنام والأوثان،** يعبدونهم ويرجونهم ويخافون منهم ويتوكلون عليهم، فمثلهم في هذا الحال الذي هم فيه، ﴿ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ ﴾ **الحيوان الضعيف،** فالكافر مثله كالعنكبوت في ضعفه، فاتخذا أولياء ينصرونه أضعف منه، ﴿ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾ ولم ينتفع بذلك البيت بكثير شيء من حيث أنه سهل الوصول إليه، والهتك له إلا أنه يتخذه لصيد بعض البعوض وبعض الحشرات، فهؤلاء عُباد الأصنام اتخذوا الأصنام آلهة من دون الله فلم تنفعهم ولم تغنِ عنهم شيئًا، ولا تضرهم، ولا ترزقهم، فإذًا: حالهم مع آلهتهم كحال بيت العنكبوت،﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ﴾ **أضعف،** ﴿الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ ﴾ **يسهل هتكه وإزالته،** وإذا نزل عليه الماء أو الطل غيره وأذهبه، ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ

﴿ **ما هم فيه من سوء الحال والفعال**، لكن هم كالأنعام لا يعقلون ولا يستفيدون.

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾[العنكبوت:٤٢-٤٣]، فهذه الأمثال يضربها الله عز وجل لتعقلها والاستفادة منها كما تقدم في المقدمة من بيان الحكمة من ضرب الأمثال.

سورة الروم

الآية الأولى:

٦٩- قال تعالى: ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾[الروم:١٩].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله؛ لبيان أنه على كل شيء قدير وأنه لا يُعجزه شيء، قيل فيه معاني مثل إخراج الأنسان من النطفة والفرخ من البيضة وإخراج النطفة من الإنسان والبيضة من الداجن ﴿ وَيُحْيِي الأَرْضَ ﴾ بعد جفافها بالمطر ﴿ وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ **تبعثون**، والذي يهمنا هنا: ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ ﴾ المهتدي، ﴿ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ الكافر، ﴿ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ ﴾ الكافر المنافق، ﴿ مِنَ الْحَيِّ ﴾ المؤمن الموحد، ﴿ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ وهذا أيضًا المثل الثاني: أنه يُحيي الأرض بعد موتها، موتها عدم إنباتها فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت.

والمعنى الأول يدل عليه قول الله عز وجل: ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ [الأنعام:١٢٢]، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ، وَالْبَيْتِ الَّذِي لَا يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ» أخرجه البخاري (...) ومسلم (٧٧٩) عن أبي موسى.

الآية الثانية:

٧٠- قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[الروم:٢٨].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله عز وجل للإنسان المشرك من نفسه هل يرضى له شريكًا؟ فكيف يأباه لنفسه و يرضاه لله عز وجل.

فيقول لهم: أنتم دعوتم مع الله عز وجل ورجوتم غيره، وهذه قسمة لا تستقيم، وفعل سيء إنما يقوم به من طُمست بصيرته وسُلبت هدايته، فهل ترضى أنت أيها الكافر أن يكون عبدك مُشاركًا لك في مالك؟ ، بل ربما لا يرضى لولده أن يُشاركه في ماله، فكيف يجعل لله عز وجل الشُركاء؟! ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ﴾ [الأنعام:١٠٠]، جعلوا الجن والشاطين شركاء لله عز وجل وهو الذي خلقهم.

فيقول تعالى: ﴿ ضَرَبَ ﴾ **الله عز وجل:** ﴿ لَكُمْ ﴾ **يا معاشر الناس:** ﴿ مَثَلًا ﴾ **تستفيدونه إن وفقكم الله لذلك،** ﴿ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ **في حالكم تعرفون فيه فضيلة التوحيد وسوء الشرك والتنديد،** ﴿ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ ﴾ **هل لعبدك شراكة في مالك؟ شراكة في بيتك؟ يشاركك،** ﴿ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾ أنت والعبد سواء؟! لا يكون هذا أبدًا فالعبد لا ملك له إلا بأذن

سيده، ﴿ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ يعني: **تخافون أن يُشاركوكم وتتخوفون من معرتهم،** ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ ﴾ **نبين الحجج والبراهين بتنوعها،** ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ **لأنهم الذين ينتفعون بذلك،** فهكذا الذين يُشركون مع الله عز وجل غيره من الحجارة الصماء البكماء كيف يصوغون لله عز وجل ويكرهونه ذلك لأنفسهم؟!

سورة الأحزاب

الآية الأولى:

٧١- قال تعالى: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا ﴾[الأحزاب:١٩].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله للمنافقين، فقال: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ بخلاء في صرف الخير إليكم، وفي كلِّ ما ينفعكم، وأيضًا يُطالبونكم بشدة فيما يرونه لهم، ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ ﴾ الحرب، ﴿ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ ﴾ من شدة خوفهم وفزعهم، ﴿ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ تصيبه الغشية من سكرته، وهذا حال المنافقين في حال الخوف كحال الرجل في سياقة الموت يُقَلِّبُ بصره هاهنا وهاهنا وهذا من شدة جبنهم، وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال رسول صلى الله عليه وسلم في الحديث: «شَرُّ مَا فِي رَجُلٍ، شُحٌّ هَالِعٌ وَجُبْنٌ خَالِعٌ» أخرجه أبو داود(٢٥١١)، ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ ﴾ عنهم وطمأنوا، ﴿ سَلَقُوكُمْ ﴾ آذوكم ورموكم، ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ ذربة سليطة قاطعة كالحديد من سب وشتم وتنقص و ازدراء، ﴿ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ﴾ بخلاء في أوجه الخير، كرماء في سبيل الشر والضير،

ولا يُسمى هذا بالكرم وإنما هو من السفاهة ﴿ أُوْلَئِكَ ﴾ المنافقون: ﴿ لَمْ يُؤْمِنُوا ﴾ بالله وإلا لما وقعوا في هذا الأمر: خشية الموت، ﴿ فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أبطلها، وأذهبها؛ لكفرهم، ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا ﴾ إذ لا يعجزه شيء لكمال علمه وقدرته .

الآية الثانية :

٧٢- قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾[الأحزاب:٤٣].

الشرح:

﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ ﴾ الصلاة من الله: الذِكر في الملأ الأعلى، والصلاة من الملائكة وغيرهم: الدعاء كما قال الله عز وجل ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾[التوبة:١٠٣] فعن أبي هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «وَالْمَلَائِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ، يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيْهِ، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ، مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ» أخرجه البخاري(٢١١٩)ومسلم (٦٤٩).

﴿ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ ﴾ الشرك والنفاق، ﴿ إِلَى النُّورِ ﴾ الطاعة والتوحيد وهذا هو المثل المضروب فيه إذ مثل الإيمان والتوحيد بالنور ومثل الكفر والنفاق بالظلمات، ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ ولم يُقيد "رحيم" إلا بالمؤمنين؛

لأنه يرحمهم في الآخرة، مع أنه الرحمن في الدنيا والآخرة ويهدي ويوفق ويرزق إلا أن رحمته للمؤمنين تتمحض في الآخرة؛ حيث يدخلهم رحمته التي هي الجنة.

ومن باب الفائدة فقد قال ابن القيم في (**جلاء الأفهام** ١/ ١٦١) :صلاة الله سبحانه على عبده فنوعان، عامة و خاصة.

أما العامة: فهي صلاته على عباده المؤمنين، قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ**﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ومنه دعاء النبي صلى الله عليه وسلم بالصلاة على آحاد المؤمنين، كقوله: " **اللهم صل على آل أبي أوفى**"، وفي حديث آخر: أن امرأة قالت له: صل علي زوجي، قال: " **صلى الله عليك و على زوجك**" وسيأتي ذكر هذا الحديث وما شابهه إن شاء الله تعالى.

النوع الثاني: صلاته الخاصة على أنبيائه ورسله، خصوصًا على خاتمهم و خيرهم محمد صلى الله عليه وسلم

فاختلف الناس في معنى الصلاة منه سبحانه على أقوال:

أحدها: أنها رحمته.

قال إسماعيل: حدثنا نصر بن علي، حدثنا محمد بن سواء، عن جويبر عن الضحاك قال: "**صلاة الله رحمته وصلاة الملائكة الدعاء**".

وقال المبرد: " أصل الصلاة الرحمة، فهي ممن الله رحمة، ومن الملائكة رقة واستدعاء الرحمة من الله"، وهذا لقول هو المعروف عند كثير من المتأخرين.

والقول الثاني: " أن صلاة الله مغفرته".

قال إسماعيل: " حدثنا محمد بن أبي بكر حدثنا محمد بن سواء، عن جويبر، عن الضحاك، ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً ﴾[الأحزاب:٤٣] قال: **"صلاة الله مغفرته، و صلاة الملائكة الدعاء"**.

وهذا القول هو من جنس الذي قبله، وهما ضعيفان؛ لوجوه:

أحدها: أن الله سبحانه فرق بين صلاته على عباده، و رحمته، فقال: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾[البقرة:١٥٧-١٥٨]، فعطف الرحمة على الصلاة، فاقتضى ذلك تغايرهما هذا أصل العطف، و أما قولهم:

و أَلْفَى قَوْلَهَا كَذِبًا ومَيْنًا

فهو شاذ نادر، لا يحمل عليه أفصح الكلام، مع أن **المَيْنَ** أخص من الكذب.

الوجه الثاني: أن صلاة الله سبحانه خاصة بأنبيائه ورسله و عباده المؤمنين، و أما رحمته فوسعت كل شيء، فليست الصلاة مرادفة للرحمة، لكن الرحمة من لوازم الصلاة وموجباتها وثمراتها.

فمن فسرها بالرحمة فقد فسرها ببعض ثمرتها ومقصودها، وهذا كثيرًا ما يأتي في تفسير ألفاظ القرآن، و الرسول صلى الله عليه وسلم يفسر اللفظة بلازمها و جزء معناها، كتفسير الريب بالشك، والشك جزء مسمى الريب، و تفسير المغفرة

بالستر، وهو جزء مسمى المغفرة، و تفسير الرحمة بإرادة الإحسان، وهو لازم الرحمة، ونظائر ذلك كثيرة، قد ذكرناها في أصول التفسير.

الوجه الثالث: أنه لا خلاف في جواز التَّرحُّم على المؤمنين، واختلف السلف والخلف في جواز الصلاة على غير الأنبياء على ثلاثة أقوال، سنذكرها فيما بعد إن شاء الله تعالى، فعلم أنهما ليسا بمترادفين.

الوجه الرابع: أنه لو كانت الصلاة بمعنى الرحمة لقامت مقامها في امتثال الأمر، وأسقطت الوجوب عند من أوجبها إذا قال: " **اللهم ارحم محمدا و آل محمد**" و ليس الأمر كذلك.

الوجه الخامس: أنه لا يقال لمن رحم غيره ورق عليه فأطعمه أو سقاه أو كساه أنه صلى عليه، و يقال: إنه قد رحمه.

الوجه الخامس: أن الإنسان قد يرحم من يبغضه و يعاديه، فيجد في قلبه له الرحمة ولا يصلي عليه.

الوجه السابع: أن الصلاة لابُدَّ فيها من كلام، فهي ثناء من المصلِّي على من يُصلي عليه، وتنويه به، و إشارة لمحاسنه ومناقبه و ذِكْره.

ذَكَرَهُ البخاري في (**صحيحه**) عن أبي العالية قال: "**صلاة الله على رسوله ثناؤه عليه عند الملائكة**".

وقال إسماعيل في كتابه: حدثنا نصر بن علي، حدثنا خالد بن يزيد، عن أبي جعفر، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية: ﴿ **إِنَّ اللهَّ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ**

﴿[الأحزاب:٥٦]، قال: **"صلاة الله عز وجل ثناؤه عليه، وصلاة الملائكة عليه الدعاء"**.

الوجه الثامن: أن سبحانه فرق بين صلاته وصلاة ملائكته وجمعهما في فعل واحد، فقال: ﴿ إِنَّ اللهَّ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ وهذه الصلاة لا يجوز أن تكون هي الرحمة، وإنما هي ثناؤها سبحانه وثناء ملائكته عليه، ولا يقال الصلاة لفظ مشترك، و يجوز أن يستعمل في معنييه معًا، لأن في ذلك محاذير متعددة:

أحدها: أن الاشتراك خلاف الأصل، بل لا يعلم أنه وقع في اللغة من واضع واحد، كما نص على ذلك أئمة اللغة، منهم المبرد و غيره، و إنما يقع وقوعًا عارضًا اتفاقيًا بسبب تعدد الواضعين، ثم تختلط اللغة فيقع الاشتراك.

الثاني: أن الأكثرين لا يجوزون استعمال اللفظ المشترك في معنييه لا بطريق الحقيقة و لا بطريق المجاز، وما حكي عن الشافعي رضي الله عنه من تجويزه ذلك فليس بصحيح عنه، و إنما أخذ من قوله: **"إذا أوصى لمواليه وله موال من فوق ومن أسفل تناول جميعهم"**. فظن من ظن أن لفظ (**المولى**) مشترك بينهما، أنه عند التَّجَرُّد يحملُ عليهما، وهذا ليس بصحيح فإن لفظ (**المولى**) من الألفاظ المتواطئة فالشافعي في ظاهر مذهبه و أحمد يقولان بدخول نوعي الموالي في هذا اللفظ، وهو عنده عام متواطئ لا مشترك.

و أما ما حكي عن الشافعي رحمه الله تعالى أنه قال في مفاوضة جرت له في قوله: ﴿ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ [النساء: ٤٣]، و قد قيل له: قد يراد بالملامسة الجماع قال: "

هي محمولة على الجس باليد حقيقة، وعلى الوقاع مجازا". فهذا لا يصح عن الشافعي و لا هو من جنس المألوف من كلامه، و إنما هذا الكلام بعض الفقهاء المتأخرين، و قد ذكرنا على إبطال استعمال اللفظ المشترك في معنييه معا بضعة عشر دليلا في مسألة (**القرء**) في كتاب التعليق على الأحكام.

فإذا كان معنى الصلاة : هو الثناء على الرسول صلى الله عليه وسلم، والعناية به، و إظهار شرفه و فضله و حرمته، كما هو المعروف من هذه اللفظة، لم يكن لفظ (**الصلاة**) في الآية مشتركا محمولًا على معنييه، بل قد يكون مستعملًا في معنى واحد، وهذا هو الأصل في الألفاظ اهـ.

سورة فاطر

الآية الأولى:

٧٣- قال تعالى: ﴿ وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾[فاطر:٩].

الشرح:

ضرب الله عز وجل مثلًا على قدرة الله عز وجل بإحياء الموت وحشرهم يوم القيامة، بأحياء الأرض بعد موتها ويباسها : ﴿ وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ ﴾ **المبشرة بالرحمة والمطر،** ﴿ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ **تسوقه،** ﴿ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ ﴾ يعني: **لا مطر فيه ولا نبات،** ﴿ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ **فأصبحت خضراء بعد يباسها مثمرة بعد جدبها،** ﴿ كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ البعث من القبور إلى أرض المحشر والمنشر أي: **أن البعث والنشور سهل عليه ويسير إليه، كإحياء الأرض الموات بالمطر، فلا يُعجز الله عز وجل شيء.**

الآية الثانية:

٧٤- قال تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ * وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ * إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾[فاطر:١٩-٢٣].

الشرح:

هذه الآيات ضربها الله عز وجل مثلًا لبيان فضل الإيمان والإسلام على الكفر والنفاق والإجرام.

فيقول تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى ﴾ الكافر، ﴿ وَالْبَصِيرُ ﴾ المسلم.

﴿ وَلا الظُّلُمَاتُ ﴾ الكفر والنفاق، ﴿ وَلا النُّورُ ﴾ التوحيد والإسلام.

﴿ وَلا الظِّلُّ ﴾ الإسلام وأهله، ﴿ وَلا الْحَرُورُ ﴾ الكفر وأهله.

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ ﴾ المؤمن والمسلم حي:

ليس من مات فاستراح بميتٍ إنما الميت ميت الأحياءِ

﴿ وَلا الأَمْوَاتُ ﴾ الكفار والمنافقون ماتت قلوبهم فكان شأنهم كالأموات مع أنهم مكلفون، ﴿ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ ﴾ الهدى والخير سمع استجابة، ﴿ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ممن علمه أهلًا للهداية، ﴿ وَمَا أَنْتَ ﴾ يامحمد،﴿ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ أي: كما أنك لا تُسمع من في القبور لا تُسمع هؤلاء الصم البكم.

﴿ إِنْ ﴾ ما، ﴿ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ رسول من الله عز وجل، تدعوهم إلى طاعة العزيز الغفور سبحانه وتعالى: ﴿ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾[الزمر:٤١].

فمثل هذه الأمثلة العظيمة: تدل على عظيم شأن الإسلام، وعظيم شأن السنة والمتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وتدل على خطر الكُفران والنفاق والعصيان، والبعد عن متابعة النبي عليه الصلاة والسلام.

قال ابن القيم في (اجتماع الجيوش الإسلامية ١/ ٧٥)

"فجعل من اهتدى بهداه واستنار بنوره بصيرًا حيًّا في ظلٍّ يقيه من حرِّ الشبهات، والضلال والبدع والشرك مستنيرًا بنوره، والآخر أعمى ميتًا في حرِّ الكفر والشرك والضلال منغمسًا في الظلمات "اهـ.

سورة يس

الآية الأولى:

٧٥- قال تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ * قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ * قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ * وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ * إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ * إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ * قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾[يس:١٣-٢٧].

الشرح:

هذا مثل أمر الله عز وجل بضربه؛ لمعرفة أن دعاة الحق قد يُبتلون وقد لا يستجيب لهم الكثير، وقد يُعاندوهم ويقتلوهم، وصاحب الحق يبذل نفسه لله ويصبر على الناس وعلى أذاهم، وهمه استجابتهم.

وانظر إلى هذا الرجل بعد أن قتلوه كما في قصة حبيب النجار، أدخله الله الجنة فتمنى أن قومه يعلمون بهذا الصنيع الذي أكرمه الله به؛ لعلهم يستجيبون ويدخلون في الإيمان والإسلام، فإن الأنبياء عندهم حرص على هداية أقوامهم؛ حتى قال الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾[فاطر:٨]، وقال: ﴿ إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾[النحل:٣٧].

سورة الصافات

الآية الأولى:

٧٦- قال تعالى: ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾[الصافات:٤٨-٤٩].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله عز وجل لبيان جمال الحوريات في الجنة.

﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾ هذا هو التمثيل حيث شبه الله عز وجل الحوريات بالبيض المكنون المحفوظ الذي لم يمس الناصع في بياضه، وسُميت بقاصرات الطرف؛ لأنه قصرنَّ أطرافهن على أزواجهن فلا ينظرنَّ إلى غيرهم.

سورة الزمر

الآية الأولى:

٧٧- قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾[الزمر:٢٧-٢٩].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله عز وجل لبيان عظيم شأن التوحيد، وخطر الشرك والتنديد.

يقول الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ **كثير من الأمثال،** ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ **ويتفكرون في مراد الله عز وجل فينقادون لشرعه وينتهون عن نهيه وزجره.**

وهذا القرآن: ﴿ قُرآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ **مفهوم المعنى كما أنه معلوم المبنى،** ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ **يأتون بالمطلوب، وينتهون عن المرهوب،** وإنما كابروا فيه مُكابرة وردوا دلالته، كما قالوا: ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[فصلت:٢٦].

ثم أراد الله عز وجل أن يُبين لهم عظيم شأن التوحيد وخطر الشرك والتنديد

فقال: ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ﴾ عبد اجتمع عليه ثلاثة من السادة أو أربعة أو خمسة سيئوا الملكة والتصرف، كل يُريده على حال وعلى طريق، وربما اختلفوا في أمره واختلفوا في نهيه، وربما قرروا بيعه وهكذا، المهم: لا يستقيم شأنه، ﴿ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ ﴾ عبد لرجل واحد يُحسن إليه ويُكرمه ويعينه وعمله يسير، ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾؟ لا يستوون، فهكذا الموحد ولله المثل الأعلى عبوديته لله الواحد القهار، وأما المشركون المنددون فعبوديتهم لآلهة متنوعة: تارة يعبدون الحجر، وتارة الشجر، وتارة الكواكب والشمس القمر، وتارة الشياطين وهكذا، فهذا المثل فيه: عظيم شأن التوحيد، وأن الموحد عبد لله عز وجل: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾[الأنعام:١٦٢-١٦٣]، فإذا كان لا يستوي العبد المُشَّرك المبعض مع العبد الذي ليس بُمشَّرك ولا مبعض فكذلك لا يستوي الموحد مع المُشرك، لا سواء لا في الدنيا ولا في الآخرة، ﴿ الْحَمْدُ لله ﴾ على هذا المثل العظيم والحمد لله على كل حال، ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾.

سورة فُصلت

الآية الأولى:

٧٨- قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [فصلت:١٧].

الشرح:

الشاهد: أن الله عز وجل وصفهم بالعمى أي: أنهم كفروا وأشركوا ونددوا، ولو كانوا اهتدوا وانقادوا لكانوا مُبصرين، فالمخالف للحق المعارض له المفتئت عليه المبتعد منه وإن كان مُبصر البصر إلا أنه أعمى البصيرة وهذا أشد أنواع العمى، فربما يُشاهد نملة سوداء في ليلة مُظلمة لكن يعمى أن يرى الحق والهدى والنور والضياء الذي أوحاه الله عز وجل وأنزله.

فقال:﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾ قوم صالح، ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أرشدناهم، ودللناهم إلى الإسلام والخير، ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى﴾ الكافر والشرك، ﴿عَلَى الْهُدَى﴾ الإسلام والتوحيد، ﴿فَأَخَذَتْهُمْ﴾ بسبب شركهم وكفرهم، ﴿صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ المهين لهم، ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من المعاصي والشركيات.

سورة الشورى

الآية الأولى:

٧٩- قال تعالى: ﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾[الشورى:١١].

الشرح:

هذه آية عظيمة فيها الخبر عن الله عز وجل إذ أنه لا تُضرب له الأمثال، كما قال تعالى: ﴿ فَلا تَضْرِبُوا لله الأَمْثَالَ ﴾[النحل:٧٤].

فيقول تعالى: ﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي: **الله عز وجل خالق السماوات والأرض وموجدهما من العدم،** ﴿ جَعَلَ ﴾ **خلق:** ﴿ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ مثلاء ونظراء، أو زوجة يفضي إليها ويحصل منها على الولد وتقوم على خدمته، ﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ﴾ **مثلاء ونظراء،** ﴿ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ **يكثركم في هذه الدنيا فيُنشئكم ويوجدكم ويكثركم،** ومع هذا كله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ **ليس مثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله،** ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ **للمسموعات سمع يليق بجلاله،** ﴿البَصِيرُ﴾ **للمُبْصَرات بعينين حقيقتين،** وهذه الآية عمدة عند أهل السنة والجماعة في إثبات الصفات لله عز وجل وتنزيه الله عن صفات المخلوقين: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ رد على الممثلة، ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ رد على المعطلة.

والممثلة أخذوا بالشق الأخير: ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾، وتركوا الأول: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾.

والمعطلة أخذوا الشق الأول: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾، وتركوا الشق الثاني: ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾.

وأهل السنة والجماعة أخذوا بدلائلهما فأثبتوا لله عز وجل الصفات مع نفي مماثلة المخلوقات.

ويذكر العلماء في هذا الموطن: أن الأقيسة ثلاثة:

الأول: قياس التمثيل، وهو تمثيل الخالق بالمخلوق أو العكس وهذا منفي عن الله، وهذا كفر، من مثل الله بخلقه كفر، ومن عطل الله من صفاته كفر.

الثاني: قياس الشمول، وهو أن يأتي إلى المعنى العام مثل الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، فيجعل من اتصف بهذه الصفات مماثل لغيره ممن اتصف بها فهذا باطل، من اعتقد مماثلة الله لخلقه أو لشيء من مخلوقاته كفر، وهذا أحد أوجه كُفر النصارى: أنهم زعموا أن الله مثل عيسى أو عيسى مثل الله تعالى الله عن قولهم.

والثالث: قياس الأولى، وهو الذي قد يستخدمه بعض أهل السنة وضابطه: أن كل كمال ثبت للمخلوق وهو من الكمال الذي لا نقص فيه فالله أولى به، مثل: العلم الله أولى به، والسمع الله أولى به، والقدرة الله أولى بها، فما كان للمخلوق أن يكون أكمل من خالقه تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا.

سورة الزخرف

الآية الأولى:

٨٠- قال تعالى: ﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾[الزخرف:١١].

الشرح:

ضرب الله عز وجل مثل إحياء الموتى يوم القيامة بأحياء الأرض اليابسة القاحلة.

الآية الثانية:

٨١- قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ * وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾[الزخرف:١٧-١٩].

الشرح:

هذا مثل للمرأة: أن نصرها بكاء وبرها سرقة كما قال بعضهم، فهؤلاء جعلوا البنات لله وجعلوا البنين لهم ساء ما ضربوه وما اعتقدوه.

فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ﴾ **بالأنثى،** ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ **من الفضيحة يخرج بين الناس يُعيرونه ويزدرونه،** ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ

﴿ يعني: مهموم مغموم، حتى أن بعضهم لما جاءت له زوجته ببعض البنات هجرها ورفض أن يعود إليها، ففي ليلة من الليالي كانت تنوم ولدها وتقول:

مـــا لأبـــي حَمـــزةَ لا يَأتينـــا ... يَظـــلّ في البيـــتِ الّـــذي يَلينـــا

غَضـــبان أَن لا نلـــدُ البَنينـــا ... تَـــاللهِّ مـــا ذلـــكَ في أَيـــدينا

وَإِنّـــما نَـأخـــذُ مـــا أُعـــطينا ... وَنَـحـــنُ كَـــالأرضِ لِزارِعـــينـــا

نـنبـــتُ مـــا قَـــد زَرعـــوهُ فينـــا

فعند ذلك فهم أن الأمر ليس إلى المرأة بالمجيء بالولد أو الأنثى فعاد إلى صلتها؛ فلذلك ينبغي أن الإنسان لا يتأثر جاءته بنت أو جاءه ولد فهو الله الذي خلق ذلك: ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾[الشورى:٤٩-٥٠]، فالعقيم يتمنى الولد ذكرًا أو أنثى، وبعضهم يرزقه الله ذكورًا صِرف، وبعضهم يرزقه الله إناث صِرف، بل ربما يحصل على خنثى لا ذكر ولا أنثى نسأل الله السلامة والعافية.

﴿ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ ﴾ **النساء ؛ تتجمل بالذهب والفضة وغيرها**، ولذلك يقولون: الرجل أجمل من المرأة، فالرجل لا يحتاج إلى مواد زينة وتجميل، أما المرأة لا يكتمل جمالها إلا بمواد التجميل وبالحُلِيَّ والزينة والملابس، ﴿ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ إذا خاصمت ما تستطيع أن تُفصح ولا تستطيع أن تنتصر، قال رجل من الجاهلية: **"والله ما أنت بِنعمَ الولد برها سرقة، ونصرها بكاء"**.

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ﴾ زعموا لله البنات ولهم ما يشتهون، ﴿ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ﴾ حتى قالوا هذا القول، ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ عنها.

الآية الثالثة:

٨٢- قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾[الزخرف:٥٧-٥٩].

الشرح:

لما قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾[الأنبياء:٩٨]، قال الكفار: خصمنا محمدًا، فعيسى عُبِدْ من دون الله إذًا هو من أهل النار، فلما قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم أنزل الله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾[الأنبياء:١٠١].

فهنا يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ يصيحون ويجلبون.

﴿ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ ﴾ يعني: الحجارة الصماء خير، ﴿ أَمْ هُوَ ﴾ أم عيسى؟ ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ﴾ مجادلة ومخاصمة، ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ كثيروا الجدل.

﴿إِنْ﴾ ما، ﴿ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ بالنبوة والرسالة، ﴿ وَجَعَلْنَاهُ ﴾ صيرناه، ﴿ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ يُقتدى به ويؤخذ بسيرته وطريقته.

سورة الدخان

الآية الأولى:

٨٣- قال تعالى: ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴾[الدخان:٤٣-٤٦].

الشرح:

﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ﴾ هذا تمثيل لشجرة الزقوم التي لم تُرى في الدنيا وإنما هي من عذاب الآخرة كما قال تعالى أَذَلِكَ ﴿ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ *إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ *طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴾[الصافات: ٦٢ – ٦٨] .

﴿ طَعَامُ الأَثِيمِ ﴾ طعام أهل الآثام والكفر والطغيان.

شأنها: ﴿ كَالْمُهْلِ ﴾ **الرصاص المُذاب، أو عكر الزيت،** ﴿ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴾ هم يعرفون الرصاص ويعرفون كيف يغلي؛ فلذلك مُثلت لهم به.

﴿ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴾ الماء شديد الحرارة، نسأل الله السلامة والعافية.

كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾[الكهف: ٢٩].

سورة محمد

الآية الأولى:

٨٤- قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾[محمد:١٢].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله لبيان خسَّة الكفار، فقد شبههم الله بالأنعام البكماء التي لا عقل لها: ﴿ أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾[الأعراف:١٧٩]، ﴿ أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ [البينة:٦].

قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أهل الإسلام، ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ أي: تجري فيها الأنهار، ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وأشركوا ونددوا، ﴿ يَتَمَتَّعُونَ ﴾ في هذه الحياة الدنيا تمتعًا زائلًا، ﴿ وَيَأْكُلُونَ ﴾ ويتبعلون: ﴿ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ الأنعام تأكل ومصيرها إلى الذبح، وهكذا هؤلاء يأكلون ويشربون ومصيرهم إلى النار وبئس القرار.

الآية الثانية:

٨٥- قال تعالى: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى

وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾[محمد:١٥].

الشرح:

وهذا مثل ووصف للجنة التي يسلكها المؤمنون ويسكن فيها الموحدون وهي رحمة الله عز وجل لأوليائه وأصفيائه في كل زمن وحين فعن أبي سعيد رضى الله عنه، قال الله عز وجل للجنة: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا عَلَيَّ مِلْؤُهَا» **أخرجه البخاري (٤٨٥٠) ومسلم(٢٨٤٦).**

فيقول الله عز وجل: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ المراقبون لله عز وجل في السراء والضراء وفي الشدة والرخاء، الذين يفعلون المأمور ويتركون المحظور، وإن وقعوا في شيء من ذلك تابوا ورجعوا واستغفروا، ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ ﴾ جمع نهر، ﴿ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ غير متغير الطعم أو اللون أو الريح؛ بل ماء عذب زلال، وفيها نهر الكوثر، ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ بطول مكث أو بشيء يوضع فيه، بل هو لبن في غاية الصفاء وفي غاية النقاء وفي غاية اللذة، ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ أنهار من خمر لكن: ﴿ لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ [الصافات:٤٧]، لا يُمنعون منها ولا تُغتال عقولهم وإنما يتلذذون بها شُربًا: ﴿ لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة:٣٣]، ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾ ليس فيه شيء مما

يبقى في عسل الدنيا الذي ربما خُلِطَ بغيره وربما وقع فيه الغش وغير ذلك، ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ مما يأكلون ويتنعمون، ﴿وَ﴾ مع ذلك لهم أيضًا: ﴿ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ يتجاوز عن سيئاتهم وذنوبهم ورفع درجاتهم، هل يستوي هذا الصنف: ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ﴾ من الكافرين والمعرضين؟ كلا: ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا ﴾ ماء حارًا شديد الحرارة مثل: الحميم والرصاص المذاب، ﴿ فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ أول ما يُقربه من فيه يتساقط لحم وجهه، فإذا شَرِبَ مر على أعضائه وأحشائه وأذابها معه، نسأل الله السلامة والعافية.

سورة الفتح

الآية الأولى:

٨٦- قال تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[الفتح:٢٩].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله عز وجل لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، فضرب لهم مثلين: مثلًا في التوراة، ومثلًا في الإنجيل، لَمَّا كان التوراة كتاب عمل ذكر من وصف المسلمين: أنهم يُكثرون الركوع والسجود، وأن سيماهم أي: علامات الفلاح والخير في وجوههم؛ فإن المصلي تختلف سمته عن تارك الصلاة، بينما الإنجيل لَمَّا كان كتاب مواعظ كان مثلهم كالزرع المثمر الذي يعجب زارعيه.

وهذه الآية استدل بها مالك على كُفر الرافضة الذين يسبون أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله يقول: ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾.

فيقول تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ﴾ أي: محمد بن عبد الله هو رسول الله صلى الله عليه وسلم جميع المكلفين، ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ الصحابة، ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ

كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ [التوبة: ١٢٣].

﴿ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[المائدة:٥٤]، فهذا مثلهم في القرآن، حيث بَيَّنَ أنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم، والتوراة بينت أنهم كثيرُو العبادة، والإنجيل بَيَّنَ أنهم كالزرع الأخضر يُعجبُ من رآه، ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ يُكثرون الصلاة، يصلون في الصباح الفجر وبعد الزوال الظُهر، وفي المساء العصر، وفي الليل المغرب ثم العشاء، هذه الصلوات المفروضات ولهم دون ذلك من الصلوات المستحبات، وهم في صلاتهم: ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ ﴾ قبولًا ومجازاة، ﴿ وَرِضْوَانًا ﴾ يرضى عن عملهم الصالح: كما قال: ﴿ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾[الزمر:٧]، ﴿ سِيمَاهُمْ ﴾ علاماتهم: ﴿ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ ذهب بعضهم: إلى أنه المراد بها الأثر الذي يكون في جبهة الساجد وليس كذلك؛ إنما المراد بالسيماء: علامات يوم القيامة من بياض الوجوه وصفائها أو علامات المؤمن من أنه أنقى من الكافر، أما هذه قد تتكون لمن كانت بشرته رقيقة أو ربما وقع على مكان خشن فليست مقياس، المقياس: أن يكون الإنسان على صلاح، ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ﴾ التي أنزلها الله على موسى عليه السلام، ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ ﴾ نبت في أرض طيبة، ﴿ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ فراخه المتفرعة من جوانبه، ﴿فَآزَرَهُ﴾ فقوى، ﴿ فَاسْتَغْلَظَ فصار غليظًا، ﴿فَاسْتَوَى﴾ استقام، ﴿عَلَى سُوقِهِ﴾ جذوعه، فهذه مزرعة أخرجت

عشبها ثم ارتفع وقويَّ حتى قام، ﴿ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ﴾ يُعجبهم بدون بطر ولا أشر، ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ الكافر هو المزارع فالمزارع في اللغة يُسمى: كافر، فلما كان الكافر يتحلى بالعقيدة الفاسدة السيئة من الشرك والتنديد سُميَّ بهذا الاسم، ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ ﴾ أي: من جميع الصحابة، فـ ﴿ مِنْهُمْ ﴾ ليست للتبعيض بل لبيان الجنس وإنما ذهب، الرافضة إلى أنها للتبعيض،وهذا سوء سريرتهم، وعقيدتهم في الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، والمعنى وعد الله جميع الصحابة: ﴿ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

ومن باب الفائدة أذكر في هذا الموطن ما قلته في (**المنظومة الزعكرية في مهمات العقيدة الإسلامية**) في بيان منزلتهم:

القول في الصحابة رضوان الله عليهم

وَحُـبُّ صَـحْبٍ لِلرَسُـولِ   يُبْغِضُـهُمْ مُنَـافِقٌ مُجَانِـبُ
قَدْ عَايَشُوا التَّنْزِيـلَ وَالْقُرْآنَـا   وَفَضْـلُهُمْ وَخَـيْرُهُمْ قَـدْ بَانَـا
فَضَّلَهُمْ رَبِّي عَلَى مَـنْ بَعْـدَهُمْ   وَهُـمْ حَقِيـقٌ حَيْـثُ أَبْلَـوْا
فَأَخْلَصُـوا قَـوْلًا وَفِعْـلًا مَـعْ   وَتَوْبَـةٍ صَـادِقَةٍ مِـنَ الزَّلَـلْ
أَعْلَاهُمُ فَضْلًا هُـوَ الصِّـدِّيقُ   صَـاحِبُهُ فِي الْغَـارِ وَالْعَتِيـقُ
يَلِيـهِ فِي الْفَضْـلِ أَبُـوحَفْصٍ   لَـهُ مَنَاقِـبٌ لَنَـا فِيهَـا عِـبَرْ
قَـدْ وَافَـقَ الْقُـرْآنَ وَالتَّنْـزِيلَا   أَبْـلَى بَـلَاءً لَـنْ تَـرَى مَثِـيلَا

ثَـالِثُهُمْ عُـثْمَانُ فِي الْفَضِـيلَهْ صِهْرُ الرَّسُولِ سَالِكٌ سَبِيلَهْ
مِـنَ النَّبِـيْ زُوِّجَ بِـابْنَتَيْنِ كَـرِيمُ طَبْعٍ كَانَ ذَا النُّورَيْنِ
رَابِعُهُـمْ خَـيْرًا وَفَضْـلًا طُـرَّا أَبُوتُرَابٍ يَـا لَهَـا مِـنْ بُشْـرَى
ابْنَـاهُ سَـيِّدَا شَـبَابِ الْجَنَّـةِ قَدْ صَحَّ هَذَا عَنْ طَرِيقِ السُّنَّةِ
تَمَـامُهُمْ فِي الْفَضْـلِ أَعْنِـي خَـيْرُ الصِّـحَابِ وَالثِّقَـاتِ
سَـعْدٌ سَـعِيدٌ وَأَبُوعُبَيْـدَهْ وَطَلْحَـةُ أَفْعَالُـهُ رَشِـيدَهْ
ثُمَّ الزُّبَيْرُ وَابْنُ عَوْفٍ بُشِّـرُوا بِجَنَّـةٍ جَمِـيعُهُمْ قَـدْ ظَفِـرُوا
عَائِشَةٌ فِي الْفَضْلِ مَعْ خَدِيجَةِ وَقَـذْفُهَا كُفْـرٌ بِغَـيْرِ رِيبَـةِ
بَقِيَّـةُ الصَّـحَابَةِ الْأَخْيَـارِ مُهَـاجِرِينَ ثُـمَّ مِـنْ أَنْصَـارِ
وَمِثْلُـهُ حَـقٌّ لِآلِ الْمُصْـطَفَى أَخُصُّ مِنْهُمْ صَالِحًا قَدِ اقْتَفَى
سَـيِّدَةُ النِّسَـاءِ أَعْنِـي فَاطِمَـهْ وَحَقُّ كُلِّ صَـاحِبٍ فِي تَرْجَمَـهْ
لَا يُـذْكَرُونَ بِسِـوَى الْجَمِيـلِ فَضْـلُهُمُ فِي مُحْكَـمِ التَّنْزِيـلِ
وَحُبُّهُمْ فَرْضٌ عَلَيْنَـا وَاجِـبُ مَنْهَجُهُمْ هُوَ الطَّرِيقُ الصَّائِبُ
أَزْكَى الْوَرَى شَـهَادَةُ الْمُخْتَـارِ مُسَـطَّرٌ بِأَجْمَـلِ الْآثَـارِ
يُبْغِضُـهُمْ رُوَيْفِـضٌ مُنَـافِقُ فَاحْذَرْ هُدِيتَ ذَا سَبِيلٌ مَاحِقُ
وَاحْذَرْ مِنَ الْغُلُوِّ فِي الْأَفَاضِلِ طَرِيـقُ صُـوفِيٍّ قَبِـيحٍ عَاطِـلِ

سورة ق

الآية الأولى:

٨٧- قال تعالى: ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾[ق:١٠-١١].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله عز وجل للبعث بعد الموت من إنزال المطر وإنبات الزرع حتى ترى: ﴿النَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ **طويلات عظيمات،** ﴿لَهَا طَلْعٌ﴾ **ثمر:** ﴿نَضِيدٌ﴾ **قد أصابه النضوج، والخير.**

وجعله الله: ﴿ رِزْقًا لِلْعِبَادِ ﴾ **يأكلون منه ويأتدمون به،** ﴿وَأَحْيَيْنَا﴾ **أنبتنا بالمطر،** ﴿بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ **يابسة،** ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ فكما أحيا الله عز وجل الأرض اليابسة بالمطر يُحيي الناس يوم القيامة ويخرجون من قبورهم ويحشرون إلى ربهم سبحانه وتعالى.

سورة الطور

٨٨- قال تعالى: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴾[الطور:٢٤].

الشرح:

شَبه الله عز وجل خدم أهل الجنة باللؤلؤ المكنون في صفاء وجوههم وبهاء صورهم؛ لأن العرب كانت تعرف اللؤلؤ فربما زينوا به نساءهم، والمكنون غير المتعرض للشمس أو اللمس، فالمتعرض للشمس أو اللمس قد يتغير لونه وبهاؤه، لكن المكنون المصون، يعني: لونه جميلًا براقًا لامعًا وغاية في البياض، فالله عز وجل وصف الولدان المخلدون في صفاء وجوههم وجمال صورهم كأنهم لؤلؤ مكنون.

سورة القمر

الآية الأولى:

٨٩- قال تعالى: ﴿ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ * مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾[القمر:٧-٨].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله عز وجل للكافرين حين يُبعثون من قبورهم كأنهم جراد منتشر، حيث يملأ الأماكن هاهنا وهاهنا ما يمشي في شق واحد بل ينتشر ويتفرق، وهكذا الكفار حين يبعثون لا يلوي أحد منهم على أحد فهم يخرجون من قبورهم: ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ **قد ارتفعت أبصارهم من شدة الأهوال لايستطيعون إغماضها؛** لما يتخوفونه من النار والأهوال والعذاب،﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ﴾**القبور يسرعون في خطاهم،** ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾[يس: ٥١] .

﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾ وحالهم أنهم: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ **يستمعون الذي يدعوهم، ثم:** ﴿ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ **شديد.**

الآية الثانية :

٩٠- قال تعالى: ﴿ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾[القمر:٢٠].

الشرح:

مثل ضربه الله لحال قوم عاد حيت دمرهم الله بالريح فأصبحت جثثهم ملقية في الأودية والشعاب مثل جذوع النخل التي قد أصابها اليباس، والله عز وجل ضرب هذا المثل لكفار قُريش؛ لأنهم كانوا يجدون النخل في الأراضي التهامية وفي الأراضي الحجازية والنجدية، إذا كانت النخلة منبعجة ما ترى منها إلا العمود، وقوم عاد كانوا طوال، فلما دمدم الله عز وجل عليهم وكانت: ﴿تَنزِعُ النَّاسَ﴾ **تطرحهم**: ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ **مثلهم**، ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ أصول النخل، ﴿مُنْقَعِرٍ﴾ **قد أُلقيَّ**، نسأل السلامة والعافية.

الآية الثالثة :

٩١- قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ * فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ * أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ * سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنَ الْكَذَّابُ الأَشِرُ * إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ * وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ * فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾[القمر:٢٣-٣١].

الشرح:

أولئك: ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾ [القمر:٢٠]، وهؤلاء: ﴿ كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر:٣١]، يعني: كأن معك غنم أو بقر أو إبل أو حمير تعلفها تأكل في علفها وتدوس في علفها، فما يكون تحتها من بقايا طعامها هذا هو الهشيم؛ لشدة الصيحة والصاعقة التي لحقتهم وكذلك مزقتهم فصار حالهم كهذه البقايا من طعام الحيوان، فالله عز وجل دمدم عليهم ودمر.

فكل هذه أمثلة يذكرها الله عز وجل للكافرين لعلهم أن يتعظوا ويعودوا من كفرهم، وللمؤمنين؛ ليستبشروا بوعد الله لهم وبنصر الله لهم وبإعزاز الله لهم؛ حيث دمر أعداؤهم وأهلكهم، والله المستعان.

وفيها بيان: لعظيم قدرة الله إذ لا يُعجزه شيء، ريح تأخذك وتلقيك إلى حيث أراد الله، فحصى تقتلك، وصيحة تُميتك، والله المستعان.

سورة الرحمن

الآية الأولى:

٩٢- قال تعالى: ﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ * ﴾[الرحمن:٣٧-٣٨].

الشرح:

هذا يوم القيامة، يقول الله عز وجل: ﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ ﴾ تشققت كما قال تعالى: ﴿ ذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾[الانشقاق:١]، وقال: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ ﴾[الفرقان:٢٥]، فلها حالات تتشقق وتطوى، ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ أي: كالخيل الوردي من شدة تشققها وعظيم حرارتها، وتعلمون أن الحديد عند أن يُحمى عليه يصير له لون، فعند ذلك يسهل تشققها وذهابها نسأل الله السلامة.

الآية الثانية:

٩٣- قال تعالى: ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾[الرحمن:٥٦-٥٨].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله عز وجل للحوريات اللاتي أكرم الله بهنَّ المؤمنين في الجنة: ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ في جمالهن وصفائهن وبهائهن وكثرتهن فعن: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَصِلُ فِي الْيَوْمِ إِلَى مِائَةِ عَذْرَاءَ» (الصَّحِيحَة: ٣٦٧) ، وعن أبي هريرة رضى

الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:«وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، يُرَى مُخُّ سَاقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ» أخرجه مسلم (٢٨٣٤).

وقال: ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ على أزواجهن لا يتعدى إلى غيرهم، ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ ﴾ يعني: أبكار: ﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾[الواقعة:٣٧].

سورة الحديد

الآية الأولى:

٩٤- قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾[الحديد:٩].

الشرح:

تقدم: أن الظلمات: هي الشرك والكفر والبدعة والمعصية، وأن النور: هو التوحيد والسنة والطاعة.

فيقول تعالى: ﴿هُوَ﴾ أي: الله: ﴿الَّذِي يُنَزِّلُ﴾ القرآن: ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم، ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات جليات مفهومات، والسبب في ذلك: ﴿ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ ﴾ من ظلمات الشرك والإلحاد: ﴿إِلَى النُّورِ﴾ التوحيد والسنة، ومن نجاه الله من ظُلمات الدنيا سَلِمَ من ظُلمات الآخرة، ومن وقع في الظُلمات المعنوية وقع في الظُلمات الحسية، ﴿ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ ﴾ إذ أرسل إليكم الرُسل وأنزل عليهم الكُتب: ﴿ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾.

الآية الثانية :

٩٥- قال تعالى: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾[الحديد:١١].

الشرح:

سمى الله عز وجل الإنفاق في سبيل الله عز وجل قرضًا لله سبحانه وتعالى؛ وذلك لما فيه من الأجر والمثوبة والمضاعفة.

الآية الثالثة :

٩٦- قال تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾[الحديد:٢٠].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله عز وجل للدنيا: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ ليست بدار قرار ولا بدار بقاء وإنما حلالها حساب وحرامها عقاب إن لم يتدارك العبد برحمة من الله عز وجل، ﴿وَزِينَةٌ﴾ **والزينة سُرعان ما تذهب قال تعالى :** ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَمَلًا ﴾[الكهف:٤٦]، وربما تذهب، ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ تفاخر بها بالأنساب، بالأحساب، بالأموال، ﴿ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ ﴾ **كما**

قال تعالى: ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾[التكاثر:١-٢]، مثلها، ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ كمثل مطر أنزله الله عز وجل على أرض جدباء فأنبتت الكلأ والعُشبَ الكثير، وسقا الناس واستفادوا وأُعجِبَ الزُراع بهذا النبات؛ لأملهم بما فيه من الخيرات، لكن سُرعان ما يتغير هذا النبات: ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ﴾ فهكذا الإنسان يبدأ طفلًا ثم يكبر فإذا أُعجبَ بنفسه وإذا به يَضعف في قواه ويَضعف في مداركه، ﴿ثُمَّ يَكُونُ﴾ الزرع، ﴿حُطَامًا﴾ ينتهي، وهكذا الحياة الدنيا تنتهي، ﴿ وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ للكافرين، ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ ﴾ للمؤمنين الموحدين، ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ الزائلة الفانية: ﴿ إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ يغتر بها من سفه نفسه كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [البقرة:١٣٠]، وأما المؤمن فهو يستبشر ويعمل ويُثابر ويُبادر.

سورة الحشر

الآية الأولى:

٩٧- قال تعالى: ﴿ لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ ﴾[الحشر:١٤].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله عز وجل لحال الكافرين والمنافقين، ولحال أهل البدع والمخالفين يجتمعون على أهل الإسلام وعلى أهل الطريقة السوية الطريقة المرضية، وهم في الواقع يختلفون اختلافًا كبيرًا عظيمًا.

يقول تعالى: ﴿ لا يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ أي: **اليهود ومن معهم من أهل النفاق،** ﴿ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ ﴾ **مبنية مشيدة لا يستطيعون المواجهة؛** لجبنهم وَخَوَرِهم، ﴿ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ ﴾ **جمع جدار: وهو ما يُتقى به وصول السهام وضرب السيوف،** ﴿ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ يعني: هم فيما بين أنفسهم وعند لقاء بعضهم يتصورون الشجاعة والقوة والمكنة، ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا ﴾ في اجتماعهم على أهل الإسلام ومناوئتهم للحق، ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ **متفرقة مختلفة،** ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ ﴾ **شرع الله.**

الآيـة الـثـانـيـة :

٩٨- قال تعالى: ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[الحشر:١٥].

الشرح:

أي: مثلهم في كفرهم وبغيهم سيكون: ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ﴾ من كفار قريش حيث أخرجوا النبي صلى الله عليه وسلم، أو من كان قبلهم من الأمم التي خالفت أمر رسلها فدمدم الله عز وجل عليهم، ﴿ ذَاقُوا ﴾أصابهم، ﴿ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ جزاء بغيهم وكفرهم وعنادهم، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الدنيا بالهزيمة والسيف، وفي الآخرة بالنار.

الآيـة الـثـالـثـة :

٩٩- قال تعالى: ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾[الحشر:١٦].

الشرح:

ومثل المنافقين لَمَّا قالوا لليهود: ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾[الحشر:١١]، أي: مثلهم في هذا القول: ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ الأكبر الرجيم، ﴿ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ ﴾ بالله واجحد ربوبيته وألوهيته، ﴿ فَلَمَّا كَفَرَ ﴾ الإنسان، ﴿ قَالَ ﴾ الشيطان: ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ وقد ذكر الله عز وجل مثل ذلك في سورة

الأنفال حيث قال: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ * إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[الأنفال:٤٨_٤٩] فهؤلاء أمروهم بقتال النبي صلى الله عليه وسلم وشجعوهم على مخالفة أمر النبي صلى الله عليه وسلم، فلما جاء الأمر بإجلائهم، وإذا بهم أجبن من الطائر يخورون ويَفرَقون ويهربون، والله المستعان.

وهذا مثل بليغ لمن يأمرك بالشر ويحضك عليه ويزينه لك، لكنه في آخر المطاف سيتبرأ منك سواءً في الدنيا أو في الآخرة، ومثل هذا مثل الشيطان هو الذي يأمر بالشر وهو الذي تكون منه البراءة الشديدة يوم القيامة من عابديه: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم:٢٢].

سورة الصف

الآيـة الأولـى:

١٠٠- قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾[الصف:٤].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله عز وجل للمؤمنين إذ يصفون في القتال كصفوفهم في الصلاة، وهذا الصف كالبنيان المرصوص، كالبناء الذي تُبنى به البيوت أو تُبنى به المساجد أو تُبنى به الجدر؛ وذلك لترابطهم وتكاتفهم وأخذهم بأمر النبي صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ﴾ **صفة المحبة لله عز وجل وهي من الصفات الفعلية،** ﴿ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ ﴾ **مُخلصين له لإعلاء كلمته،** ﴿صَفًّا﴾ **صفوفًا،** ﴿كَأَنَّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ **قد شدَّ بعضه بعضًا.**

سورة الجمعة

١٠١- قال تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الجمعة:٥].

الشرح:

تقدم في سورة الأعراف: أن الله عز وجل مثل العالم الذي لم يعمل بعلمه بالكلب، وهنا يُمثل العالِم الذي يحفظ العلم، ويُجيد القراءة والكتابة والحفظ ولكنه لا يعمل بعلمه كالحمار بئس المثلين لمن كان من أصحابها سواء الكلب الذي يلهث على جميع أحواله ولا يرتاح لا في شدة ولا رخاء ولا في راحة ولا عناء، أو مثل الحمار يصبر صبرًا عظيمًا على أحماله ولكنه قليل التعلم قليل الاستفادة، بخلاف الفرس قد يتعلم وكثير من الحيوانات قد تتعلم، لكن الحمار يُضرب به المثل في الصبر والبلادة.

قال تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ لم يعملوا بها، ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ ﴾ البهيم، ﴿ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ كُتبًا كثيرةً على ظهره لا يدري ما فيها، ﴿ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ ﴾ يعني: بئس المثل مثلهم والوصف وصفهم، ﴿ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ الكافرين، لا يوفقهم؛ لعلمه أنهم ليسوا أهلًا للهداية .

قال ابن القيم رحمه الله في (هداية الحيارى ١/ ٤٤٦-٤٤٧) :

"وَمِنْ جَهْلِهِمْ أَنَّ اللهَّ سُبْحَانَهُ شَبَّهُهُمْ فِي حَمْلِهِمُ التَّوْرَاةَ، وَعَدَمِ الْفِقْهِ فِيهَا، وَالْعَمَلِ بِهَا بِالْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا، وَفِي هَذَا التَّشْبِيهِ مِنَ النِّدَاءِ عَلَى جَهَالَتِهِمْ وُجُوهٌ مُتَعَدِّدَةٌ:

(مِنْهَا) أَنَّ الْحِمَارَ مِنْ أَبْلَدِ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي يُضْرَبُ بِهَا الْمَثَلُ فِي الْبَلَادَةِ.

(وَمِنْهَا) أَنَّهُ لَوْ حَمَلَ غَيْرَ الْأَسْفَارِ مِنْ طَعَامٍ أَوْ عَلَف أَوْ مَاءٍ لَكَانَ لَهُ بِهِ شُعُورٌ بخلاف الأسفار.

(وَمِنْهَا) أنهم حُمِّلوها، لا أنهم حَمَلُوها طوعًا واختيارًا، بل كانوا كالمكلفين لما حَملوه لم يرفعوا به رأسًا.

(وَمِنْهَا) أَنَّهُمْ حَيْثُ حُمِّلُوهَا تَكْلِيفًا وَقَهْرًا لَمْ يَرْضَوْا بِهَا، وَلَمْ يَحْمِلُوهَا رِضَاءً وَاخْتِيَارًا، وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُمْ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْها، وَأَنَّهُمْ إِنْ حَمَلُوهَا اخْتِيَارًا كَانَتْ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

(وَمِنْهَا) أَنَّهَا مُشْتَمِلَةٌ عَلَى مَصَالِحِ مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ وَسَعَادَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِعْرَاضُهُمْ عَنِ الْتِزَامِ مَا فِيهِ سَعَادَتُهُمْ وَفَلَاحُهُمْ إِلَى ضِدِّهِ مِنْ غَايَةِ الْجَهْلِ وَالْغَبَاوَةِ، وَعَدَمِ الْفَطَانَةِ" اهـ.

سورة المنافقون

١٠٢- قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾[المنافقون:٤].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله للمنافقين بأنهم كالخشب المسندة التي لا نفع فيها إلا المنظر.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ أي: إذا رأيت المنافقين يا محمد: ﴿تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ ربما تكون لينة أجسامهم، بيضاء وجوههم، جميلة ملابسهم، شأنهم في الظاهر عظيم ولكنهم في الباطن على أسوأ حال، ﴿وَإِنْ يَقُولُوا﴾ الكلام المنمق المرتب: ﴿تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ وربما أيضًا أيدوه بالأيمان يحلفون ويحلفون وأنت تصدق من هذا حاله، لكن في الواقع: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ جمع خشبة، أي: كأنهم خشب قد رُصت ووضعت في جانب الجدار، أو نُصبت للبناء عليها، منظرها جميل وهي خشبة ما تستفيد ولا تُفيد، غاية ما فيها: أنها يُبنى عليها أما هؤلاء وصفهم كوصف الخشب الذي لا يسمع صوتًا ولا يستطيع أن يأتي بفعل، وهم مع ذلك: ﴿يَحْسَبُونَ﴾ لشدة خوفهم وجبنهم وخورهم، ﴿كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ كلما نزل أمر، أو جاء نهي، أو وعد، أو وعيد وإذا بهم يفرقون ويخافون ويرهبون، كما يقولون عندنا في المثل اليمني: "إذن السارق تطن"، يعني: إذا قمت

تتكلم عن السرقة وإذا بالسارق يخاف منك ويقول: كيف عرفت أني سارق، فأنت لم تعرف لكن لَمَّا كان الكلام واقع فيه ظن أنك تقصده وأنت ربما أعطيت النصيحة عامة، فالمنافقون لشدة بغضهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولشدة عنادهم ولشدة بغضهم للصحابة، ولشدة بغضهم لدين الإسلام كلما جاء وعيد ظنوه عليهم، وكلما جاء وعد زادهم غيظًا على أهل الإسلام، ﴿ **هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ** ﴾ يعني: **العدو الباطن**، وعداوته أشد من عداوة الظاهر، فاليهود قد اتقاهم النبي صلى الله عليه وسلم وعَلِمَ مكرهم، وأهل مكة قبل إسلامهم قد اتقاهم النبي صلى الله عليه وسلم وعَلِمَ مكرهم، لكن هؤلاء يُصلون خلفه، ويصومون معه، ويخرج للجهاد فيخرجون معه، وأرادوا في غزوة تبوك أن يقتلوه، وقعوا في عرضه، وطعنوا في صحابته: **"ما رأينا أسمن بطونًا ولا أجبن عند اللقاء من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم"**، ﴿ **قَاتَلَهُمُ اللهُ** ﴾ لعنهم الله، ﴿ **أَنَّى يُؤْفَكُونَ** ﴾ كيف يُصرفون عن الحق والهدى مع أنهم يعيشون مع أهله ويلازمونهم ليل نهار.

سورة التغابن

١٠٣- قال تعالى: ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾[التغابن:١٧].

الشرح:

تقدم أمثالها، وما فيها من بيان فضل الصدقة فعن أبي هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ البَخِيلِ وَالمنفق، كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ، مِنْ لَدُنْ ثَدْيَيْهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا، فَأَمَّا الْمُنْفِقُ: فَلاَ يُنْفِقُ شَيْئًا إِلَّا مَادَّتْ عَلَى جِلْدِهِ، حَتَّى تُجِنَّ بَنَانَهُ وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ، وَأَمَّا البَخِيلُ: فَلاَ يُرِيدُ يُنْفِقُ إِلَّا لَزِمَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَوْضِعَهَا، فَهُوَ يُوسِعُهَا فَلاَ تَتَّسِعُ » (رواه البخاري (١٤٤٣) ومسلم (١٠٢١) .

سورة الطلاق

١٠٤- قال تعالى: ﴿ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقًا ﴾[الطلاق:١١].

الشرح:

يقول الله عز وجل: ﴿رَسُولًا﴾ أُرسل إليكم وهو محمد صلى الله عليه وسلم، ﴿ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ ﴾ القرآن وصحيح السنة، ﴿مُبَيِّنَاتٍ﴾ واضحات جليات، ﴿ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ ﴾ الكفر والشرك والنفاق والمعصية، ﴿إِلَى النُّورِ﴾ التوحيد والسنة والطاعة، ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا ﴾ العمل الصالح داخل في مُسمى الإيمان وإنما هو من عطف الشيء على نفسه، ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقًا ﴾ في الدنيا والآخرة، وطلب العلم والإيمان من أحسن الرزق.

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ﴾: دليل على العلم، ﴿وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾: دليل على العمل: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [الانشقاق:٢٥]، فسرها السلف: **بالعلم والعمل**.

سورة التحريم

الآية الأولى:

١٠٥- قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾[التحريم:١٠].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله عز وجل؛ لبيان أن الهدى والصلاح من الله، فربما يكفر أقرب القريب ويؤمن الأبعد وغيره، وربما العكس فالأمر إلى الله، كان إبراهيم عليه السلام رسولًا نبيًا موحدًا، وكان أبوه ظالمًا مُشركًا منددًا، كان محمد صلى الله عليه وسلم رسول رب العالمين إلى الناس أجمعين، وكان عمه الذي رباه وأحاطه ونصح له وغضب له مُشركًا منددًا.

وهنا نوح رسول مُبين ولوط رسول مُبين، وزوجتاهما كافرتان منافقتان، وهكذا نوح رسول وولده كافر: ﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾ [هود:٤٢-٤٣]، فالهدى من الله يهدي بهديه من يشاء فضلًا ويُضل من يشاء عدلًا، فلا تبتأس إذا رأيت الضلال بين أهل الهداية، ولا تحزن إذا رأيت أهل الضلالة قد كثروا فربما تخرج من بينهم أهل الهداية كما سيأتي في قصة زوجة فرعون.

الآية الثانية :

١٠٦- قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[التحريم:١١].

الشرح:

آسيه بنت مزاحم زوجها كافر ومجتمعها كافر ومع ذلك كانت من المؤمنين الكاملات المخلصات، فعن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم: «كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ، إِلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَإِنَّ فَضْلَ، عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ، كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ» أخرجه أحمد (١٩٥٢٣).

الآية الثالثة :

١٠٧- قال تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾[التحريم:١٢].

الشرح:

وهذا مثل ضربه الله عز وجل للمؤمنين: من أن المرأة الصالحة القانتة المخبتة المنيبة قد يوفقها الله عز وجل للخير العظيم ويدفع عنها الشطر المستطير.

وانظر كيف رزقها الله عز وجل الولد بغير زوج إكرامًا لها ولأمها آية عظيمة وحجة قويمة.

قال ابن القيم رحمه الله في (**إعلام الموقعين**١/ ٣٧٤_٣٧٧) :

"فاشتملت هذه الآيات على ثلاثة أمثال: مَثَلٍ للكفار، ومَثَلَين للمؤمنين.

فتضمَّن مَثَلُ الكُفَّار: أنَّ الكافر يُعاقَبُ على كفره وعداوته للهَّ ورسوله وأوليائه، ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين من لُحْمَةِ نسب أو وُصْلَةِ صِهْر، أو سَبَب من أسباب الاتصال؛ فإن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة، إلا ما كان منها متصلًا باللهَّ وحده على يد رسوله، فلو نفعت وُصْلَةُ القرابة أوالمصاهرة أو النكاح مع عدم الإيمان لنفعت الوُصْلَةُ التي كانت بين نوح ولوط وامرأتيهما. فلما لم يُغْنِيَا عنهما من اللهَّ شيئًا، وقيل: ﴿**ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ**﴾ قطعت الآيةُ حينئذٍ طمعَ مَن ركب معصية اللهَّ وخالف أمره، ورجا أن ينفعه صلاحُ غيره من قريب أو أجنبي، ولو كان بينهما في الدنيا أشدُّ الاتصال، فلا اتصال فَوْقَ اتصال البنوَّة والأبوة والزوجية، فلم يُغْن نوح عن ابنه، ولا إبراهيم عن أبيه، ولا نوح ولا لوط عن امرأتيهما من اللهَّ شيئًا، قال اللهَّ تعالى: ﴿**لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ**﴾ [الممتحنة: ٣]، وقال تعالى: ﴿**يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا**﴾ [الانفطار: ١٩]، وقال تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا**﴾ [البقرة: ١٢٣]، وقال: ﴿**وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللهَّ حَقٌّ**﴾ [لقمان: ٣٣]،

وهذا كلُّه تكذيبٌ لأطماع المشركين الباطلة أنَّ مَنْ تعلَّقوا به من دون اللهَّ من قَرَابةٍ أو صِهْرٍ أو نكاح أو صُحْبة ينفعهم يوم القيامة، أو يُجيرُهم من عذاب اللهَّ،

أو يشفع لهم عند اللهَّ، وهذا أصْل ضَلالِ بني آدم وشِرْكِهِم، وهو الشرك الذي لا يغفره اللهَّ، وهو الذي بعث اللهَّ جميع رسله وأنزل جميع كتبه بإبطاله ومحاربة أهله ومعاداتهم.

فصل

وأما المثلان اللذان للمؤمنين

فأحدهما: امرأة فرعون، ووَجْهُ المثلِ أن اتصال المؤمن بالكافر لا يَضُره شيئًا إذا فارقه في كُفره وعملِه، فمعصية العاصي لا تضر المؤمن المطيعَ شيئًا في الآخرة، وإنْ تَضَرَّرَ بها في الدنيا بسبب العقوبة التي تحلُّ بأهل الأرض إذا أضاعوا أمرَ اللهَّ فتأتي عامة؛ فلم يَضُرَّ امرأة فرعون اتصالُها به وهو من أكفر الكافرين، ولم ينفع امرأةَ نوح ولوطٍ اتصالُهما بهما وهما رسولا رب العالمين.

المثل الثاني للمؤمنين: مريمُ التي لا زَوْجَ لها، لا مؤمن ولا كافر،

فذكر ثلاثة أصناف النساء: المرأة الكافرة التي لها وُصْلة بالرجل الصالح، والمرأة الصالحة التي لها وُصْلة بالرجل الكافر، والمرأة العزبة التي لا وُصْلَة بينها وبين أحد.

فالأولى: لا تنفعها وصلتها وسببها،

والثانية: لا تضرُّها وصلتها وسببها،

والثالثة: لا يضرُّها عدمُ الوصلة شيئًا.

ثم في هذه الأمثال من الأسرار البديعة ما يناسب سياقَ السورة؛ فإنها سِيقَتْ في ذكر أزواج النبي صلى اللهَّ عليه وسلم، والتحذير من تظاهرهنَّ عليه، وأنهن إن لم يُطِعْنَ اللهَّ ورسوله ويُرِدْنَ الدارَ الآخرة لم ينفعهن اتصالهن برسول اللهَّ صلى اللهَّ عليه وسلم، كما لم ينفع امرأة نوح ولوطٍ اتصالهما بهما، ولهذا إنما ضرب اللهَّ في هذه السورة مثل اتصال النكاح دون القرابة.

قال يحيى بن سَلَّام: ضرب اللهَّ المثلَ الأولَ يحذر عائشة وحفصة، ثم ضرب لهما المثل الثاني يحرِّضُهما على التمسك بالطاعة.

وفي ضَرْب المثل للمؤمنين (بمريم) أيضًا اعتبارٌ آخَرُ، وهو أنها لم يضُرَّها عند اللهَّ شيئًا قَذْفُ أعداء اللهَّ اليهود لها، ونسبتُهم إياها وابنها إلى ما بَرَّأهما اللهَّ عنه، مع كونها الصِّدِّيقَةَ الكبرى المصطفاة على نساء العالمين؛ فلا يضرُّ الرجلَ الصالحَ قَدْحُ الفجار والفساق فيه.

وفي هذا تَسْلِية لعائشة أُمِّ المؤمنين إن كانت السورة نزلت بعد قصة الإفك، وتوطين نفسها على ما قال فيها الكاذبون إنْ كانت قبلها، كما في ذكر التمثيل بامرأة نوح ولوط تحذيرٌ لها ولحفصة مما اعتمدتاه في حق النبي صلى اللهَّ عليه وسلم.

فتضمنت هذه الأمثالُ التحذيرَ لهن والتخويف، والتحريض لهن على الطاعة والتوحيد، والتسليةَ وتوطينَ النفس لمن أوذِيَ منهن وكُذِب عليه.

وأسرار التنزيل فوق هذا وأجل منه، ولا سيما أسرار الأمثال التي لا يعقلها إلا العالمون "اهـ.

سورة الحاقة

١٠٨- قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾[الحاقة:٦-٨].

الشرح:

الشاهد من الآيات: ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ أي: حين هلكوا وبادوا نُزعت أرواحهم وبقيت جثثهم ملقية في الأرض لا توارى، وربما أكلتها الوحوش بعد ذلك وغيرتها الشمس وذهبت مع الرياح والأمطار، نسأل الله السلامة والعافية.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ﴾ وهم قوم هود عليه السلام، كانوا في الأحقاف من بلاد حضرموت والمهرة، ﴿فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ بريح شديدة باردة.

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ ﴾ ثمانية أيام بلياليها إلا أن الريح انتهت في نهاية اليوم السابع، ﴿حُسُومًا﴾ أي: متتابعة، ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى ﴾ الكفار، ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ سيقان النخل.

﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ يُحدث عنهم ويُخبر عنه؟ الجواب: لا، ذلك لشدة ما نزل بهم من العذاب.

سورة المدثر

الآية الأولى:

١٠٩- قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾[المدثر:٣١].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله عز وجل للكافرين حين قال الله عز وجل لهم: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾[المدثر:٣٠]، قال الكفار: إذًا كُفيتموهم، فوقع فيهم النفاق، والإعراض، والاستهزاء، فأخبر الله عز وجل بقوله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ ﴾ الذين ذكروا لك يا محمد: ﴿إِلَّا مَلائِكَةً﴾ يحرسونها ويحشونها، ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وإلا فملائكة الله كُثر ما يحصيهم إلا الله عددًا، ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ يعني: الذين أُوتوا الكتاب وعَلِموا شرع الله ودخلوا في دين الله، أما إذا استمروا على كفرهم ربما يأتيهم الشكوك وغير ذلك، ﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾ إلى إيمانهم بمثل هذه الحُجج العظيمة، ﴿ وَلا يَرْتَابَ﴾ يلحقهم الشك، ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ بل ازداد إيمانهم

وحصل لهم العلم واليقين، ﴿ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ من أهل النفاق: ﴿ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾ لماذا ذكر تسعة عشر دون غيرها؟! لماذا يذكر البعوضة، ولا يذكر مثلًا كذا؟! يتحكمون في شأن ما يتعلق بالله عز وجل، ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كما ضرب الأمثال: ﴿يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ عدلًا منه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[فصلت:٤٦]، ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ فضلًا منه، ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ فهم في الكثرة لا يعملهم إلا الله، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا مِنْهَا مَوْضِعُ قَدِمٍ إِلَّا وَبِهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ أَوْ رَاكِعٌ أَوْ قَائِمٌ» أخرجه ابن نعيم في(الحلية)، والبيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك آخر ما عليه.

وذكر أهل العلم: ما قطرة تنزل من السماء إلا ومعها ملك، وهناك ملائكة موكلون بالأرحام، وملائكة موكلون بحفظ الإنسان، وملائكة موكلون بالكتابة، فكم هم جند الله؟! ومع ذلك: ﴿ لا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم:٦].

﴿ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾ مثل هذه الأمثال يتذكر بها من أراد الله به التذكر كما قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى * سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى ﴾ [الأعلى:٩-١١].

قال ابن القيم رحمه الله في (إغاثة اللهفان ١/ ٢٠_٢١):

" فهذه أربع حِكَم: فتنة الكفار، ويقين أهل الكتاب، وزيادة إيمان المؤمنين،

وانتفاء الريب عن المؤمنين وأهل الكتاب.

الخامسة: حيرة الكافر ومن في قلبه مرض، وعَمِيَ قلبه عن المراد بذلك، فيقول: ﴿ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾

وهذه حال القلوب عند ورود الحق المنزل عليها: قلب يفتتن به كفرًا وجحودًا، وقلب يزداد به إيمانًا وتصديقًا، وقلب يتيقَّنه، فتقوم عليه الحجة به، وقلب يوجب له حيرة وعمًى، فلا يدرى ما يراد به.

واليقين وعدم الريب في هذا الموضع: إن رجعا إلى شيء واحد كان ذكر عدم الريب مقرِّرًا لليقين، ومؤكدًا له، ونافيًا عنه ما يُضادُّه بوجه من الوجوه، وإن رجعًا إلى شيئين بأن يكون اليقين راجعًا إلى الخبر المذكور عن عدَّة الملائكة، وعدم الريب عائدًا إلى عموم ما أخبر الرسول به؛ لدلالة هذا الخبر الذي لا يُعلم إلا من جهة الرسول على صدقه، فلا يرتاب من قد عرف صحة هذا الخبر بعدُ في صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ظهرت فائدة ذكره" اهـ.

الآية الثانية :

١١٠- قال تعالى: ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ * فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾[المدثر:٤٨-٥١].

الشرح:

يقول الله عز وجل في شأن الكافرين يوم القيامة: ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ

الشَّافِعِينَ ﴾ كما قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾[غافر:١٨]، ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾[البقرة:٢٥٥]، ﴿ وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ [الأنبياء:٢٨]، **وهؤلاء لم يرضهم الله عز وجل.**

ثم قال متعجبًا من حالهم: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ **يسمعون القرآن ويُعرضون ويسمعون السنة ويعرضون.**

وبلغ بهم حال الإعراض: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ حُمُر الوحش تكون في الغابة ترتع وإذا رأت الأسد تخرج مُسرعة فارة، فكون هؤلاء في حالة سكون ويتضاحكون ويتمازحون ويتكلمون ويديرون جميع شأنهم لا يتغير من حالهم شيء، فإذا سمعوا قول الله وقول رسوله صلى الله عليه وسلم كان حالهم: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ يعني: **تجري هاربة فارة.**

﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ **من الأسد إذا رأته بعدها،** وقد قالوا: ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[فصلت:٢٦].

قال ابن القيم رحمه الله في (إعلام الموقعين):

"شبَّههم في إعراضهم ونفورهم عن القرآن بحُمر رأت الأسدَ أو الرماة، فَفرَّت منه.

وهذا من بديع القياس التمثيلي، فإن القوم في جهلهم بما بعث اللهَّ به رسوله كالحُمُر، فهي لا تعقل شيئًا، فإذا سمعت صوت الأسد أو الرامي نفرت منه أشد النفور.

وهذا غاية الذم لهؤلاء، فإنهم نفروا عن الهدى الذي فيه سعادتهم وحياتهم كنفور الحمر عما يهلكها ويعقرها، وتحت (المستنفرة) معنى أبلغ من (النافرة)؛ فإنها لشدة نفورها قد استنفر بعضُها بعضًا وحضَّه على النفور، فإن في (الاستفعال) من الطلب قدرًا زائدًا على الفعل المجرد، فكأنها تواصت بالنفور، وتواطأت عليه، ومن قرأها بفتَح الفاء، فالمعنى أن القسورة استنفرها وحملها على النفور ببأسه وشدته" اهـ.

سورة النازعات

١١١- قال تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾[النازعات:٤٦].

الشرح:

يعني: لهول يوم القيامة نسوا حياة البرزخ الطويلة، انظر كم بيننا وبين كُفار قُريش الذين وسدوا في بدر أكثر من ألف وأربعمائة وخمسين سنة، يوم يبعثون ينسون هذه المدة الطويلة والله أعلم كم بقيَّ للقيامة.

قال تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا ﴾ أي: القيامة لأهوالها وشدتها: ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ كما قال الله عز وجل مُخبرًا عنهم: ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ [المؤمنون:١١٣]، ﴿ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ [طه:١٠٣-١٠٤]، ينسون الدنيا بما فيها وينسون القبر بشدته عليهم؛ لأنها تأتي أهوال تنسيهم الأهوال السابقة، وتأتي بشارات تنسيهم السعادات السابقة، حتى المؤمن يجد من البشارات ما ربما ينسى معها الدنيا كما في الحديث فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضى الله عنه ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ، ثُمَّ يُقَالُ : يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ ؟ فَيَقُولُ : لاَ ، وَاللهِ يَا رَبِّ وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا ، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ،

فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ ، فَيُقَالُ لَهُ : يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ ؟ فَيَقُولُ : لاَ ، وَاللهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ ، وَلاَ رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ» أخرجه مسلم(٢٨٠٧).

سورة القارعة

الآية الأولى:

١١٢- قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾[القارعة:٤].

الشرح:

هذا مثل ضربه الله عز وجل لكثرة الناس واضطرابهم في ذلك اليوم المهول؛ حيث لا يلوي أحد منهم على أحد، شأنهم أنهم كالفراش الذي قد بُثَّ في الأرض يعرف هذا من قد رأى الفراش كيف يتناثر هاهنا وهاهنا، والفراش لا عقل له بحيث ينضبط في ذهابه وفي إيابه ربما يقع حتى في النار، فعن أَبِي بَكْرَةَ رضى الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « يُحْمَلُ النَّاسُ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَتَقَادَعُ بِهِمْ جَنَبَتَا الصِّرَاطِ تَقَادُعَ الْفَرَاشِ فِي النَّارِ» أخرجه أحمد(٢٠٤٤٠)، فالناس في ذلك اليوم في حطمة وشدة وكثرة وضيقة وسكرة، نسأل الله السلامة والعافية.

الآية الثانية:

١١٣- قال تعالى: ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾[القارعة:٥].

الشرح:

أي: تكون الجبال الثوابت الكبيرة العظيمة الصماء الثقيلة، بعد أن تتشقق وتتفطر وتُسير يكون شأنها: ﴿كَالْعِهْنِ﴾ الصوف وما إليه، ﴿الْمَنفُوشِ﴾ الذي قد ضربته الريح ما تُشاهده إلا في الهواء لا ثقل له ولا جرم كبير له، فهكذا الجبال:

﴿ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا ﴾ [طه:١٠٥-١٠٧].

وهذه الأمثال يضربها الله عز وجل؛ ليتعظ الإنسان حين يقرأ مثل هذه الآيات وهذه الحجج القويمات ويعرف أنه مسكين كيف يُعارض حُكم الله الشرعي! وكيف يتنمر على وحي الله! والواجب عليه: أن يكون مستفيدًا مستمعًا لما يُلقى عليه.

سورة الفيل

١١٤- قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾[الفيل:١-٥].

الشرح:

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ **أخبرني يا محمد وأخبر غيرك:** ﴿ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ **أبرهة الأشرم ومن إليه،** وهو من الحبشة سُميَّ بالأشرم؛ لأنه غزا اليمن أميران من أمراء الحبشة أبرهة وإرياط، ثم سيطروا على صنعاء وأخذوا ملك ذي يزن وأخذوا حُرمه وأخذوا كل شيء، ثم وقع بينهم خلاف فاجتمع الحبشة من هاهنا ومن هاهنا لقتال بعضهم بعضًا، ثم كان الرأي بينهم: أن يقتتل أبرهة وإرياط فأيهما غلب الثاني دان له بقية الحبش، فقُتِلَ إرياط وأُصيب أبرهة بشرمة في وجهه؛ فلذلك سُميَّ أبرهة الأشرم، وكان متعصبًا للنصرانية.

وسبب مجيئهم إلى اليمن لنصرة النصارى الذين كانوا فيها حيث تسلط عليهم بعض اليهود وقتلوهم، فبعد ذلك بنا قُليسًا لما سمع من شأن الكعبة وعظمة الكعبة، فلما سَمِعَ العرب ببناء هذا القُليس وأنه يُريد أن يصرف وجوه الناس عن الكعبة غضبوا وذهب بعضهم فتغوط داخل ذاك القُليس الذي يُعظمه أبرهة الأشرم، وأراد أن يصرف به الناس إلى نفسه، فعند ذلك غَضِبَ غضبته وعزم على

غزو الكعبة وهدم الكعبة، وحمل معه فيل إذ لم يكن عادة العرب حمل الفيل إنما الفيلة مع العجم؛ لأن بلاد العرب أصلًا ما فيها غابات لحياة الفيلة

فلمَّا انطلقوا إلى مكة أخذوا معهم من أخذوا بقوة السلاح بعض العرب ليريهم الطريق، فلما وصلوا إلى قُرب مكة وادي مُحسر برك الفيل فضربوه، وأحموا تحته فأبى أن يتحرك، فردوه إلى جهة اليمن فمضى، وردوه إلى جهة الكعبة فبرك، بعد ذلك أرسل الله عليهم طيرًا أبابيل أنشأها الله ترميهم بحجارة صغيرة ومن دخلت فيه أهلكته أو كاد أن يهلك.

﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾ **هلاك وبوار،** ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ **طير متتابع يأتي هذا الفوج ويلحقه الفوج الثاني،**

حتى قال بعضهم:

أيــن المفــر والإلــه الطالــب؟! والأشرم المغلــوبُ لــيس الغالِــبُ

﴿ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ **الطين الصلب الشديد.**

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾ هذا هو الشاهد: **جعلهم:** ﴿ كَعَصْفٍ ﴾ **نبات:** ﴿ مَأْكُولٍ ﴾ **أكلته الدواب يتناثر هاهنا وهاهنا،**

فهذه الأمثلة التي ذكرها الله عز وجل في كتابه الكريم دعوة لنا إلى تعقلها وتدبرها والاستفادة منها، فربما يستفيد من أراد الله له الذِكرى والعظة ويتوب ويؤوب: ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٣].

ونكون في هذا اليوم: السابع من/ شوال/ لعام ثلاثة وأربعين وأربعمئة وألف هـ وفي مسجد الصحابة بمدينة الغيضة قد انتهينا مما أردنا التعليق به على كتاب:

"التبيان لأمثال القرآن".

وكان الانتهاء من مراجعته بعد رصه وتفريغه في يوم

الثلاثاء السابع من شهر القعدة الحرام من نفس العام وبالله التوفيق

وسبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

الفهرس

المقدمة..... ٣

فصل الأول: التمهيد..... ٦

تعريف الأمثال..... ٦

أنواع الأمثال:..... ٧

أنواع أمثال القرآن الكريم..... ٧

أهمية الأمثَال القُرآنية..... ١٠

الفصل الثاني..... ١٥

بيان الأمثال على ترتيب المصحف..... ١٥

سورة البقرة..... ١٥

سورة آل عمران..... ٤١

سورة المائدة..... ٤٦

سورة الأنعام..... ٤٩

سورة الأعراف..... ٥٥

سورة الأنفال..... ٥٩

سورة التوبة..... ٦١
سورة يونس..... ٦٦
سورة هود..... ٦٩
سورة الرعد..... ٧٢
سورة إبراهيم..... ٨٣
سورة النحل..... ٩٤
سورة الإسراء..... ١٠٢
سورة الكهف..... ١٠٣
سورة الأنبياء..... ١١١
سورة الحج..... ١١٢
سورة المؤمنون..... ١٢٤
سورة النور..... ١٢٥
سورة الفرقان..... ١٣٣
سورة العنكبوت..... ١٣٥
سورة الروم..... ١٣٦

سورة الأحزاب..... ١٤٠
سورة فاطر..... ١٤٧
سورة يس..... ١٥٠
سورة الصافات..... ١٥٢
سورة الزمر..... ١٥٣
سورة فُصلت..... ١٥٥
سورة الشورى..... ١٥٦
سورة الزخرف..... ١٥٨
سورة الدخان..... ١٦٢
سورة محمد..... ١٦٣
سورة الفتح..... ١٦٦
سورة ق..... ١٧٠
سورة الطور..... ١٧١
سورة القمر..... ١٧٢
سورة الرحمن..... ١٧٥

سورة الحديد.....١٧٧
سورة الحشر ١٨٠
سورة الصف ١٨٣
سورة الجمعة.....١٨٤
سورة المنافقون.....١٨٦
سورة التغابن ١٨٨
سورة الطلاق.....١٨٩
سورة التحريم ١٩٠
فصل ١٩٣
سورة الحاقة.....١٩٥
سورة المدثر.....١٩٦
سورة النازعات.....٢٠١
سورة القارعة.....٢٠٣
سورة الفيل.....٢٠٥